قصص من التاريخ

٦

مهد البطولات

الدكتور
محمد حسن الحمصي

دار الرشيد
دمشق - ص.ب ٢٤١٢

قصص من التاريخ

-٦-

مهد البطولات

الطبعة الثالثة

محمد حسن الحمصي

الإهـــداء

إلى روح غلام « أبي قدامة الشامي » التي ترفرف في الفراديس العليا من جنان الخلود ...

وإلى روح « غالب » التي تدعو الناس جميعاً إلى أن يقتفوا أثرها ، ويسيروا في طريق الخلود، طريق السعادة..

وإلى روح كل شهيد قاتل وقتل في سبيل الله دفاعاً عن أرض الوطن ...

تجسيداً لمعاني البطولة ... وتخليداً للأهداف السامية التي استشهدوا من أجلها ...

محمد حسن الحمصي

مقدمــة الطبعة الثانية

عدت الى هذا الكتاب اقلب صفحاته ، تمهيــداً لدفعــه الى المطبعــة ، لإعــادة طباعتــه ، بعــد أن نفــدت الطبعــة الأولى ... وكان أن وقــع بصــري على صفحات عن الفقيــد الغــالي الشهيــد ((غالب)) ... ورحت اقرا ما فيها ، وكاني اقرأ شيئاً جديداً علي ... وبلغ بي التاثر بكلمات غالب حــداً جعــل الدموع الغزيرة تذرف من عيني ــ رغماً عني ــ فتسيل لتبلل وجنتي ، وتساقط على الكتاب فتقع على كلمات غالب، وكان هذه الكلمات عطشى تريد ان تسقى بماء الدموع ؛ لتحيا في النفوس على مدى الأيــام والدهور .

ولم يسعني إلا ان اردد تلك العبارات التي رددها جنود ((غالب)) وهم على أرض المعركة ليلة استشهاده :

رحمك الله يا غالب ، رحمك الله يا غالب ...

هنيئاً لك الجنــة ! !

هنيئاً لك ... لقد فزت بما كنت تسعى وراءه !

هنيئاً لك ... لقد سعدت برضوان الله تعالى !

هنيئاً لك ... لقد لقيت ربك وهو عنك راض !

حقاً ... لقد عاش غالب حميداً ... ومات شهيداً ! !

لقد كان مدرسة في الدعوة...وكان امة وحده!!

ولا يسعني مــع هــذه الطبعــة الثانيــة إلا ان استمطر شآبيب الرحمة على روح ((غالب)) وهي في العالم الآخر ... تلك الروح الزكية الطاهرة ، التي كانت تتجــلى لي وانا أخط هذا الكتاب ، فترسم لي معالم الطريق ، وتوحي إلي بإيماضات تنير الدرب ! !

رحمك الله يا ((غالب))... وطيب ثراك الطاهر !
نفعنا الله بك يا ((غالب)) ... وحقق لنا الأمل الغالي..
بالعزة والكرامة ... والنصر على الأعداء ...
والله ولي التوفيق .

دمشق ٣٠ ربيع الأول ١٣٩٧ هـ
الموافق ١٩٧٧/٣/٢٠ م
محمد حسن الحمصي

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

وبعد

لقد سعينا في كتابنا هذا أن نقدم لقرائنا بطولة فريدة من نوعها طواها الزمان وهي بطولة غلام أبي قدامة الشامي ، تلك البطولة التي سطرها كتاب « جوهرة الزمان » لسبط بن الجوزي ، الكتاب الذي ضاع في جملة ما ضاع من تراثنا القديم . . ولولا أن الحكيم الترمذي قد أشار إلى هذه القصة في كتابه « مرقاة الوصول لنوادر الأصول » ـ كما نقلها عن سبط ابن الجوزي ـ لما عرفنا عنها شيئاً .

كما عملنا على أن نظهر ـ في هذا الكتاب ـ بطولة عشنا أحداثها ، وغابت عنا تفاصيلها ... إنها بطولة أحد الشباب

المؤمنين ، الذين اندفعوا يلبون نداء الأرض المحتلة ، يجاهدون في سبيل الله ، ويبذلون دمهم الطاهر الزكي ، رخصياً على أرض الجولان ؛ ليشتروا جنان الخلود كما اشتراها الأجداد ... لقد عرفوا الطريق ... وبذلوا الثمن غالياً .

فتعانقت بذلك بطولات السلف مع بطولات الخلف ، والتقت دماء الأجداد مع دماء الأحفاد في طريق واحد ، طريق الكفاح والنضال لرد المعتدين الغاصبين .

فكانت هذه البطولات ، قديمها وحديثها ، مثلاً علياً ، جديرة بأن تكون خالدة على مر الزمان ، ماثلة في أذهان الجميع ، تضيء لهم درب الخلود ، وتدعوهم إلى أن يكملوا مسيرة سلفهم الصالح ، تلك المسيرة التي خط طريقها بالدماء الزكية الطاهرة .

والله ولي التوفيق .

دمشق في ٨/٥/١٩٧٤

المؤلف

مهد البطولات (١)

كانت الشمس تودع الدنيا بأشعة صفراء واهنة ، تنثرها على التلال والوديان ، فيصفو لونها وكأنما هي قد اعتلّت خشية الفراق ... فهي لا تريد للشمس أن تنصرف من هذا العالم ، قبل أن تتحقق لها بغيتها في هذا الوجود ، فقد أضحى مطلبها اليوم قاب قوسين أو أدنى ... ولذلك فهي قد بدت في هذا المساء ، وكأنما هي ترجو الشمس أن تبطىء في الرحيل ، ربما تجد الفرصة المواتية ، قبل أن يخيم سكون الليل المميت !!

ولكن الشمس ما كانت تستجيب لهذه الرغبة العارمة ...

---

(١) من أراد معرفة القصة كما رواها أبو قدامة الشامي نفسه فليرجع إلى كتاب « مرقاة الوصول لنوادر الأصول » للحكيم الترمذي في الصفحة ١٣٣ — ١٣٦ .

وقد نقلها المؤلف عن « أبي المظفر سبط بن الجوزي » الذي رواها في كتابه المسمى « جوهرة الز...ن في تذكرة السلطان » .

وكأنها قد ركبت قطاراً تغذ فيه السير ، لتهبط وراء الأفق ، فتنام بعد أن أوهنها عناء المسير طوال النهار ...

إن في الكون لأمراً تتمخض عنه الأحداث التي جرت سريعة في هذا المساء !!

وها هو ذا « أبو قدامة الشامي » أمير الجيش يعود إلى منزله بعد أن صلى العصر بالناس في المسجد الجامع ، وألقى خطبة نارية ألهبت النفوس حمية ، وحركت قلوب الجموع المحتشدة من المسلمين ليبادروا إلى الجهاد مع الجيش الذي سيزحف على حصون الروم في صباح اليوم التالي ...

وسارع المسلمون ، في هذا الثغر الإسلامي العتيد ، إلى إعداد العدة ، للاشتراك في الغزاة صباح اليوم التالي ...

ولذلك رأيت الناس في هذه المدينة الصغيرة ، يهرولون إلى الأسواق ، قبل أن تقفل الحوانيت أبوابها ، يشترون ما يترتب عليهم التزود به قبل أن يمضوا إلى الجهاد ...

فهذا يركض إلى محلات بيع السلاح ، ليشتري ما يلزمه من العتاد الحربي ... وذاك يسعى إلى الحداد ، ليصلح من شأن سلاحه ... وآخر يقصد أخاً له ، يستعير من عنده بعضاً من المتاع ... وهذه امرأة خفت مسرعة ، تعد لزوجها

زوادته من طعام وشراب ... وتلك تكاد تطير فوق الأرض وهي تحمل خرجة أخيها ، بعد أن وضعت فيها متاعه ...

الجميع في شغل شاغل ... لقد دقت ساعة الجهاد ... لقد صار الجهاد فريضة عين على كل مسلم ، بعد أن اعتدى الرومان على الديار وخفروا الذمام ...

وها هو ذا « أبوقدامة الشامي » أمير الجند ، يقرر أن يسير بجملة تلقن المعتدين درساً لن ينسوه أبداً !!

وها هم أولاء جميع المسلمين ، قد هبوا يذودون عن الحمى ويدافعون عن العرين ... وهم إذا ما نسوا فلن ينسوا أبداً مقالة « أبي قدامة » التي كانت تجلجل في آذانهم بصوته الجهوري المدوي يقول :

« قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض »

فهل يتراخون أو يقعدون ، بعد أن فتحت أمامهم أبواب الجنان تناديهم إليها ؟؟!

● ● ●

تغلب الليل على النهار ... وساد الظلام ... وصلى الناس العشاء ... وأووا إلى مضاجعهم ، قريري العيون ، بعد إذ استطاع كل منهم أن يهتبل الفرصة قبل أفول النهار ، فأعد

العدة الكافية ، وتهيأ لمعركة سيكون لها وقع كبير ...

وبينما كان « أبو قدامة الشامي » يتقدم نحو السراج ، ليخمد نوره الكابي ، استعداداً للنوم ، سمع صوت طرق على الباب ... فصاح من فوره :

- من الطارق ؟

ولم يكن هناك جواب !! غير أنه سمع صوت قرع الباب مرة أخرى ... فأعاد السؤال :

- من الطارق ؟

ويا لها من مفاجأة ، عندما سمع صوتاً ناعماً رقيقاً ، من وراء الباب يقول :

- افتح يا أباقدامة !!

إنه صوت امرأة !! ومن عساها تكون ؟؟ وماذا تبتغي في هذا الوقت المتأخر من الليل ؟!

واشتغل أبوقدامة بوجة من هذه الأسئلة التي احتشدت في مخيلته ، فلم يفتح ...

وسمع صوت قرع الباب مرة أخرى ...

فلاذ بالصمت ... يفكر في أمر هذه المرأة التي قصدته في هذا الوقت المتأخر من الليل ، وهو رجل غريب ، لا يعرف أحداً من نساء هذه المدينة !!

ورأى أن الأمر لا يعدو كونه مكيدة من مكائد الشيطان !!

وعلا صوت المرأة من وراء الباب تقول :

ـ « أهكذا يفعل أرباب الصلاح بأهل الإرادة ؟؟ » [1]

فراح أبوقدامة يفكر وهو يقول في نفسه :

ـ أرباب الصلاح ؟! أهل الإرادة ؟! أي إرادة هي ؟؟ لا شك أنه ليس في الأمر مكيدة شيطانية ... ولكن ما معنى ما تقول هذه المرأة ؟؟ وماذا تريد ؟؟ لا شك أنه لو لم يكن هناك أمر مهم من أمور المسلمين لما قصدتني في هذا الوقت المتأخر من الليل !!

وسارع أبوقدامة يفتح الباب ، وقد حمل السراج بيده ، ليتعرف شخص هذه المرأة التي قصدته في موهن من الليل ...

وعلى ضوء المصباح الخافت ، استطاع أبو قدامة أن يرى ملامح تلك المرأة ، فإذا هو يرى « امرأة من أحسن الناس » ... « دفعت اليه رقعة وحزمة مشدودة ، ثم انصرفت وهي تبكي »!!

وحار أبوقدامة في أمره ... وذهب يفكر في شأن هذه المرأة ... إنها تبكي ...

---

(١) جميع العبارات التي وضعت بين قوسين صغيرين في هذه القصة منقولة عن كتاب « مرقاة الوصول لنوادر الأصول » في الصفحات ١٣٣ — ١٣٦ .

ترى هل هي فقيرة ؟ إن ملامحها تدل على فقر !!
هل هي جائعة ؟؟ إن مشيتها لا تدل على نشاط !!
أم تراها أرملة ذات أطفال ، تسعى وراء أيتامها ؟؟
وألحت الأسـئلة على ذهن أبي قدامة ولا جواب لديه يشفي غُلته !!

وتذكر أن بيده رقعة ، قدمتها إليه تلك المرأة ، ولربما يكون فيها الجواب الشافي ... وسارع إلى تلك الرقعة يفتحها على عجل ...

ووقف على ضوء المصباح الخافت ، يتلمس حاجة المرأة ، لعلها تكون قد أوضحت فيها بغيتها !! غير أنه ما وجد فيها شيئاً مما ذهب إليه بتفكيره ... لقد وجد فيها قولها :

- يا أباقدامة ... سمعتك عندما « دعوت الناس إلى الجهاد ، وحرضتهم على الثواب ...»

« وأنا امرأة لا قدرة لي على الجهاد ... »
ولا مال لدي أنفقه في سبيل الله ... أجهز به غازياً مجاهداً ...

« وقد قطعت أحسن ما فيَّ ، وهما ظفيرتاي ... »

وها أنا ذا « قد أتيت بها إليك لتجعلها قيداً لفرسك...»
« لعل الله يرى ذلك فيغفر لي » !!

وحل أبوقدامة رباط الحزمة المشدود ، فإذا هو يرى مقود فرس ، قد صنع من شعر ، وطلي بمادة لاصقة من الشمع ، تزيد من متانته ، حتى غاب لون الشعر ...

فأدرك أبوقدامة من فوره أن تلك المرأة قد جزّت ظفيرتي شعرها ، وصنعت منها مقوداً لفرس ، مساهمة منها في الجهاد !!

وراح أبوقدامة يتحسر على هذه المرأة الفقيرة ، وهو يقول :

ـ مسكينة أنت أيتها المرأة ... ما أفقرك !! إنك لم تجدي شيئاً تقدمينه للجهاد سوى خصلتي شعرك ... وماذا نفعل بهذا المقود من الشعر ؟؟ وهل تظنين أن مقودك هذا سيغني عن المسلمين شيئاً ؟!

غير أنه لم يلبث أن نظر إلى هذا الأمر بمنظار الواقع الذي تحياه هذه المرأة ، فأنشأ يقول :

ـ ولكن لا بأس !! فهذا أعز ما تملكين أيتها المسكينة... ولربما كان لإنفاقك هذا في سبيل الله ، من الثواب عند ربك ،

ما يفوق ثواب من ينفق الأموال الكثيرة !! ومن يدري ؟؟ فإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى !!

وكيف لا يكون الأمر كذلك ، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول :

(درهم سبق مئة ألف درهم) ؟!

وأردف أبو قدامة يقول :

- ولربما كان إخلاص هذه المرأة ، وجودها بأعز ما تملك ، سبباً في أن يتقبل الله عملها ، وينميه لها عنده ، فيكون أثقل في الميزان من أعمال كثير من الناس !!

وأمسك أبوقدامة مقود الشعر هذا ، ورفعه بيده ، ينظر إليه نظرة إعجاب ، وهو يقول :

- كم كانت تلك المرأة تزدهي بهذه الشعرات على أترابها من النساء !! أما الآن ... فإن هذه الشعرات قد أصبحت مقود فرس ، شأنها في ذلك شأن خيوط من الكتان !!

ووضع المقود في زاوية من البيت ... وسارع إلى فراشه ، يلتمس فيه الراحة ، يستسلم فيه لقبضة الوسن الذي أطبق على جفنيه ، فجعلها أثقل من جبلين عظيمين !!

● ● ●

وفي صبيحة اليوم التالي كان أبو قدامة الشامي على فرسه ، يرتب جيش المسلمين المحتشد قبالة الحصون الرومانية ... يذهب ويجيء ... يقدم هؤلاء الجند ويؤخر أولئك ... ينقل فئة من الجناح الأيسر إلى الجناح الأيمن ...

وبينما كان أبوقدامة يمر بين جنوده ، ينفحهم بنفحة من روحه المتقدة حماسة وإقداماً ، فيولّد فيهم اندفاعاً هائلاً ، إذا هو يرى بين الصفوف غلاماً حسن الوجه ، يحمل بيده قوساً ... فرقّ لحاله بسبب صغر سنه ... وخشي عليه أن يضيع بين قوائم الخيل الهائجة عندما تشتبك في حرب ضروس ... فقال له :

ـ ماذا تفعل هنا يا بني ؟؟

فتعجب الغلام من هذا السؤال وأجاب :

ـ ما يفعله المسلمون يا أباقدامة !!

ـ وماذا يفعلون ؟

ـ الجهاد في سبيل الله !!

ـ وهل مثلك ـ يا بني ـ يقوى على الجهاد ؟

وتابع يقول ، غير منتظر جواباً :

ـ الجهاد ـ يا بني ـ مشقة وقتل وقتال ، وموت في سبيل الله ... ومثلك لا يقوى على تحمل هذه الخطوب !!

وبنصيحه الوالد المشفق على ولده أردف يقول :

- ارجع - يا ولدي - قبل أن تلتحم الصفوف ، وتدوسك الخيل بسنابكها ...

ورفع الغلام نظره قليلًا إلى الأعلى ، حتى أحكم نظواتة المستخفة بنظر أبي قدامة ... وانطلق في دهشة يقول :

- أومثلك يقول هذا يا عم ؟؟!

- نعم ... وماذا قلت لك ؟! لقد قلت : ارجع قبل أن تدوسك سنابك الخيل !!

وبلهجة العالم الذي يؤنب جاهلًا ، راح الغلام يعرب عن انتقاده بقوله :

- كيف تقول هذا والله تعالى يقول :

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره ، إلا متحرفاً لقتال ، أو متحيزاً إلى فئة ، فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم ، وبئس المصير » [1] .

فكيف تنصحني – يا عم – بالرجوع ، وقد لقينا الكفار ساعة الزحف ؟!

---

(١) سورة « الأنفال » : الآية - ١٥ -

كيف تنصحني أن أدير ظهري لأعداء الله ؟! يبدو أنك تريد لي أن أبوء بغضب من الله ... وحاشاي أن أفعل ذلك ، وأكون من الخاسرين ...

ووقف أبو قدامة مشدوهاً ، أمام غلام يستحق أن يكون أستاذاً ، في فهم كتاب الله وتدبر آياته ، كما يصح أن يكون قدوة تحتذى في الاندفاع في سبيل الله !!

ورأى أن يترك هذا الغلام وشأنه ... فلعله يكون منه خير للمسلمين !!

وقدم له فرساً كانت لديه ... وراح يسأله :

— ماذا أعددت للجهاد يابني ؟؟

— قوسي هذه !

— وأين سهامك ؟! ما أرى إلا أن جعبتك فارغة !!

— لم يكن لدي ما أشتري به السهام !!

— وكيف ستقاتل من غير سهام ؟

— أستعير ...

— وهل يصلح للمعركة الاستعارة ؟؟

وبعد أن صمت أبو قدامة برهة ، اجتذب خلالها انتباه الغلام ، تابع يقول :

-- ياولدي ... متى حمي الوطيس ، واشتد القتال ، فإنه مامن أحد يعير أو يستعير ..

وببراءة طفلية أجاب الغلام :

– إذن أقرضني بضعة أسهم أستعملها في المعركة ...

– وهل تجيد الرمي عن قوسك يابني ؟

– أجل ياعماه ... إن أمي علمتني الرمي ، وأخبرتني أن «عمر بن الخطاب» رضي الله تعالى عنه كان يقول : (علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل) ... كما أنها علمتني أن النبي الكريم ﷺ يقول : (ألا إن القوة الرمي ... ألا إن القوة الرمي) [1] !! ومن أجل ذلك فقد بذلت كل ما أستطيع ، لأتقن الرماية عن قوسي هذه ، حتى إنه لينذر أن يخيب لي سهم !!

أحب أبو قدامة أن يعرف حسن بلاء هذا الغلام ، فأعطاه سهماً وقال له :

– ارم بهذا السهم ، حتى أرى صنيعك ...

فوضع الغلام السهم في القوس ... وسدد الرمي ... فأصاب رومياً كان يقف على الحصن ..

---

(١) رواه « مسلم » وغيره .

وما إن رأى أبو قدامة ذلك الرومي يخر صريعاً يتخبط بدمائه ، حتى التفت إلى الغلام ، يريد أن ينال شيئاً من الثواب الذي أحرزه على قتل عدو من أعداء الله ، فقال له :

ـ أنا شريكك في الأجر ياغلام ...

ـ نعم إن أنت أعطيتني سهماً آخر ...

وسارع أبو قدامة يسحب من كنانته سهماً ثانياً ، وقدمه للغلام ، بإجلال واحترام ، ثم قال :

ـ تفضل يابني ... خذ هذا السهم وسدد على أولئك الذين يقفون فوق باب الحصن ، يمسكون بقدور القطران المغلي ، ليلقوه على المسلمين إذا ما حاولوا اقتحامه ... اقذفهم به ... لعل الله يقتل واحداً منهم على يدك !!

ووضع الغلام السهم في القوس ... وسدد الرماية نحو واحد من أولئك الذين يقفون فوق باب الحصن ... وأطلق سهمه وهو يقول : باسم الله ...

وكاد أبو قدامة يطير فرحاً وهو يقول :

ـ هاهو ذا رومي آخر ، يخر صريعاً !!

ولتفت إلى الغلام يقول :

ـ أنا شريكك في الأجر ياغلام ...

وباعتزاز الذي يمسك بزمام الأمور كلها ، أجابه الغلام :

ـ إن أنت أعطيتني سهماً آخر !!

وما كاد الغلام يرمي بالسهم الثالث على الأعداء ، ليقتل به رومياً آخر ، حتى أتاه سهم من جهة الحصن ، أصابه في جبهته ، فخر على الأرض مضرجاً بدمائه !!

وأكب عليه أبو قدامة ... يريد إسعافه ...

غير أنه وجد أن السهم قد اخترق الجبهة ... وأصاب مقتلاً !!

وانحنى أبو قدامة على الغلام ، يقبله ... وذرفت دموع الأسى من عينيه ، غزيرة مدرارة ، حتى اختلطت بالدماء النازفة من الجرح ...

وفتح الغلام عينيه الباهتتين ... وبصوت هادىء فاتر راح يقول :

ـ يا أبا قدامة ...

ـ لبيك يابني ...

قالها أبو قدامة بسرعة الملهوف ، ثم وقف مكانه جامداً لايتحرك ، وقد تسمرت عيناه بالشفتين الذابلتين ، يرقب ما سيفصح عنه الغلام من قول ...

- « لي إليك حاجة » ...

- قلها - ياولدي - فداك نفسي ...

- « إذا دخلت المدينة ... فائت والدتي ... وسلم عليها عني ... وناولها هذا الخرج » .

- ومن والدتك يابني ؟

- والدتي ؟؟ إنك ستعرفها إذا ما رأيتها !

واغرورقت دمعة كبيرة في عين الغلام وهو يتابـع حديثه بقوله :

- إنها امرأة عجوز ، تقطن في مكان كذا وكذا من المدينة ... فإذا مارأيتها فأقرئها مني السلام ، وقل لهـا جزاك الله عنا كل خير ، وبشرها بأن الله لايضيـع أجر من أحسن عملاً...

ووسط جو من الصمت المطبق ، ران على الحاضرين ، راح أبو قدامة يفكر في أمر هذه الأم المسكينة ... من عساها تكون ؟ ومن أين له أن يعرفها وهو لا يعرف أحـداً في هـذه المدينة ؟!

وقبل أن ينطلق لسانه بالسؤال مرة أخرى عن هذه الأم ، التي لم يعرفها ، بدرت منه التفاتة إلى الغلام ، فوجده وقد أغمض

عينيه ، واسترخت أوصاله ، في حـــين راح لسانه يردد ، بصوت متقطع ، قوله :

أشهد أن لا إله إلا الله ... وأشهد أن محمداً ... عبده ... ورسوله ... السلام عليكم ...

وصحا أبو قدامة من جموده هـذا ، ليرد التحية ... فوجد أن الغلام قد جاد بنفسه الأخير ...

فأكب عليه يقبله ويبكي ... ثم رفع رأسه وتجلد للمصاب الذي حز في أعماق نفسه ، وكأنه قد فقد أعز أبنائه ، وقال :

ـ حقاً إن القلب ليحزن ... وإن العين لتدمع على فراق هذا الغلام !!

وأمر أعوانه فحفروا حفرة ... وعمل بنفسه ، على أن يدسه في قبره هذا لينام فيه نومته الأخيرة !!

وشك في التراب رمحاً ، في محاذاة رأس الغلام ... وانصرف للمعركة التي أخذت تحتدم من حوله ...

• • •

وما إن توقف القتال ليلاً ، حتى عـاد القائد المظفر أبو قدامة إلى المكان الذي دفن فيه الغلام ... ليقرأ الفاتحة على روحه ...

ويستعيد ذكرياته ، عن بطولة غلام لم يناهز الثالثة عشرة من عمره ، بطولة غلام سبق الرجال في تسديد الرمي ... بطولة غلام جاد بنفسه رخيصة في سبيل الله !!

وفوجىء أبو قدامة ، عندما رأى فتىً قتيلاً ، ممدداً على وجه الأرض .. إلى جانب رمحه الذي غرسه ، عند رأس الغلام الذي دفنه بيده ...

واقترب من الفتى القتيل ...

ويا للغرابة ... إنه الغلام نفسه ... قسمات وجهه ذاتها ... وجرحه الغائر بين عينيه ...

ما الذي أخرجه من بطن الأرض ، بعد أن أودعه بيده في أعماقها ؟ !

ما الذي أخرجه من باطن الأرض ؟ !

هذا هو السؤال الذي حيره طويلاً ، ولم يجد له جواباً يشفي الغلة !!

وقر اجتهاده على أن يدأ مغرضة ، قد نبشت قبر هذا الفتى وأخرجته ، وتركته على الأرض ...

وعمل مرة أخرى على أنّ يدفنه بيده [1] ...

---

(١) راجع كتاب « مرقاة الوصول لنوادر الأصول » .

وذرف دمعة على قبره هـذا ، وقـد استشاط غضباً ، وتمنى أن يعرف الذي أخرج جثمان هذا الفتى من قبره ... ولو عرفـه لجعله نكالاً وعبرة لكل من تسول له نفسه الاعتداء على حرمة ميت !!

غير أنه عاود التفكير ، يسأل نفسه بقوله :

ـ ولكن ... ماذا يبغي هؤلاء من نبش قبره ؟؟ إنـه غلام صغير ... لامال ولا سلاح لديه ... فماذا يبغون ؟!

سؤال ألحّ عليه طويلاً ... غير أنه لم يجد له جواباً قط ..

ولم يجد خيراً من أن يسدل الستار على هـذا الأمر ، مادام لايمكنه معرفة الحقيقة ؟!

وبدموع منسكبة على الخدين ... ودع أبو قدامـــة قبر الغلام ... وانصرف ...

● ● ●

وفي صباح اليوم التالي ، غدا أبو قدامة مبكراً للجهاد ...

وفي الطريق ... عرّج على قبر الغلام ... غير أنه ماعرج هـــذه المرة ليقرأ الفاتحة فحسب ... بل إن هناك أمراً كان يؤرقه ... انه يريد أن يعرف حقيقة ماسيؤول إليه أمر هـذا الغلام ... إنه يريد أن يرى قبر الغلام ، بعد ان دفنه بيده ...

وما كاد يصل إلى القبر ، حتى رأى الغلام « على وجه الأرض ، قد قذفته الأرض » [1] إلى سطحها مرة أخرى !!

وهاله الموقف !! وأدرك من فوره أن الأمر ليس من عمل لصوص ينبشون القبور ، كما تراءى له بادىء ذي بدء ... ذلك أنه ما من داع يدعوهم إلى نبشه مرة أخرى ...

ولم يجد أبو قدامة تعليلاً يقنع به نفسه ، تجاه هذا الأمر المستغرب حقاً ، إلا أن يقبل بما قاله أصحابه ، من أنه يحتمل أن يكون هـــذا الغلام ، قد خرج إلى الجهاد من غير إذن والدته [1] ، فجعله الله عبرة للناس !!

ولئن كانت نفسه لا تسلم بهذا التعليل للموقف ، فإنه وجد ذلك أقرب ما يكون إلى الحقيقة ، خصـوصاً أنه استطاع أن يستنتج من كلام الغلام أن والدته امرأة صالحة فقيرة ، لا تملك من حطـام الدنيا شـروى نقير ، وهي بأمس الحاجـــة إلى ولدها هذا .

واغتم أبو قدامة لهذا الأمر أشد الغم ... وراح يؤكد على ما قرره في اعماق نفسه بقوله :

ـ والله لئن أبقاني الله حياً حتى أعود إلى المدينـــة ،

---

(١) عن كتاب «مرقاة الوصول الى نوادر الأصول» الصفحة : ١٣٥

لأسترضين قلب هذه الأم المسكينة على ولدها ... ولأعوضنها عن فقدها فلذة كبدها... ولأبذلن لها من المساعدة ما يكفيها طوال حياتها !!

وتحسر قلب أبي قدامة على هذا الغلام المسكين ... وراح يدعو ربه ، ليغفر له ما عساه يكون قد ارتكب من أخطاء ...

وأمر أبو قدامة صحبه ... فحفروا حفرة ثالثة ... وقام هو نفسه بدفن الغلام فيها ، مرة أخرى ... ثم انصرفوا جميعاً إلى الجهاد ...

● ● ●

ولم يعد أبو قدامة إلا وقد قذفت الأرض الغلام مرة أخرى ... وجاءت الطيور فأكلت لحمه ... وتبعتها السباع تنهش ما تبقى من فتات اللحم ، وتقضم معها العظم الغض الطري !!

ووقف أبو قدامة ... وقلبه يعتصر أسى عميقاً ... وعينه تذرف الدموع غزيرة مدرارة ... ليس على فقد الغلام ، فالكل صائرون إلى الموت لا محالة ... بل إنه ذرف الدموع هذه المرة على هذا المصير السيىء الذي آل اليه الغلام ، خشية

أن يكون ذلك عقاباً له من الله ، ودليلًا على عدم الرضى عن أعماله !!

وودّ أبو قدامة لو يعرف الذنب الذي استحق به الغلام هذا العقاب القاسي ... ولو عرف الذنب لبذل المستحيل ، ليكفر عنه ذلك ... لعل الله يتقبل ، فيغفر له ويعفو عما اجترحه من سيئات !!

وتألم مر الألم ، عندما جالت في ذهنه فكرة غامضة ، راودت خياله وهو يتذكر حديث رسول الله ﷺ : (كم من قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته) !!

غير أنه حاول أن يبعد تلك الهواجس عن نفسه ؛ فإنه لا يتصور وقوعها ...

وراح يؤكد لنفسه حسن إسلام هذا الفتى ، ونيته الخالصة لوجه الله !!

وإزاء حطام عظام الغلام ، لم يجد أبو قدامة لنفسه حولاً ولا طولاً ... ووقف عاجزاً ... لا يملك أكثر من أن يردد العبارة المأثورة :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله !!

إنا لله ... وإنا إليه راجعون !!

● ● ●

وعاد أبو قدامة من حملته هـــذه مظفراً ، بعد أن لقن الرومان درساً بليغاً لا ينسونه أبداً ...

غير أنه ما كان يحس في نفسه بنشوة الظفر ... فإن شيئاً في أعماقه كان يحزه ويعكر عليه مزاجه ، فيحرمه من الاستمتاع بالنصر الذي أحرزه !!

وما كاد يعود إلى المدينة حتى قصد فوراً إلى منزل أم الغلام ... ليطرق الباب عليهـــا ليلاً ... غير مبال بالوقت المتأخر ، فإن بين جنبيه ما يؤرقه ويمنع عنه السهاد ... طرق الباب ليلاً ، وهو لا يحسب حساباً لما يمكن أن يقال عن رجل يطرق باب امرأة في موهن من الليل !!

وفتحت الباب طفلة صغيرة ...

وما كادت الطفلة ترى أبا قدامة ، وبيده خرج أخيها حتى صاحت تقول :

ـ بشراك يا أماه ... بشــراك يا أماه !! لقد استشهد أخي !!

هذا هو أبو قدامة ، أمير الجيش ، يحمل خرج أخي !!

لا بد أن أخي قد استشهد ، فهو لم يعد معه !!

وتابعت الفتاة الصغيرة قولها :

- لقد شرفنا الله بفضل الشهادة ...

لقد استشهد أخي في العام الماضي ...

واستشهد والدي في العام الذي قبله ...

وها هو ذا اليوم أخي الأصغر يلحق بأبيه وأخيه !!

وذهل أبو قدامة لفطنة هذه الطفلة ووعيها العظيم !! وأعجب بالأم ، لهذه التربية الإسلامية الغالية ، التي ربت عليها فتاتها ، حتى إنها على صغر سنها صارت ترى الشهادة مغنماً !!

وترحم على الأب الذي ضرب المثل الأعلى بنفسه لبنيه ، فسبقهم إلى الشهادة ، ودعاهم إلى الفوز بها الواحد بعد الآخر...

وراوده شيء من الأسى لحال هذه الأم المسكينة ، التي صارت وحيدة في هذه الحياة ، ليس لها إلا هذه الطفلة الصغيرة !!

غير أنه لم يلبث أن صحا من ذهوله هذا على صوت الأم وقد صارت إلى جانبه ، ترحب به وهي تقول :

- أهلاً وسهلاً بأمير الجيش أبي قدامة ...

الحمد لله على سلامتكم ... ونرجو منه جل وعلا أن يأخذ بيدكم من نصر إلى نصر !!

غير أنه لم يكد بصره يقع عليها حتى اعترته هزة شديدة ، وراح يخاطب نفسه بقوله :

– إنها هي والله !!

– إنها تلك المرأة التي جاءتني ليلاً ، وقدمت لي خصلتي شعرها ، وجعلت منها مقوداً لفرسي ... وها هو ذا رأسها المعصوب لا يبدو أن عليه شعراً ...

وتذكر أبو قدامة أنه أمام أم قد أصيبت بولدها بعد أن أصيبت بزوجها وولدها الأكبر ، فأحب أن يخفف من وقع المصاب في نفس هذه الأرملة الثكلى ، فالتفت اليها يقول :

– بشراك يا أخت ... فلقد كتب الله لك النصيب الأوفى في الجهاد ... لقد كان للمقود الذي أعطيتني أثر بين في المعركة ... فلقد انقطع مقود فرسي واستعملت المقود الذي قدمته لي ليلة المعركة ... وكان له أثر ملحوظ في تطويع فرسي الجموح ... كما أنه كان ميمون الطائر ، فلم أكد أضعه على فرسي حتى طار وسط جمع من الرومان ، ما خرجت من بينهم إلا وقد قتلت عشرة منهم !!

وتوقف أبو قدامة عن حديثه هذا ، لما رأى المرأة لا تعيره أي اهتمام !!

وصمت قليلاً ، يبتلع ريقه ، وهو يفكر فيما عساه يقدمه بين يدي هذه المسكينة ....

والتفتت المرأة إليه تقول :

– خبرني يا أبا قدامة ... « أمهنياً جئت أو معزياً » ؟؟

فاستغرب منها قولها هذا ... وصمت حائراً ، يستدرجها في الحديث ، لعلها تفصح مما تريد !!

وتابعت المرأة تقول

– « إن كان ولدي قد مات فعزني ... وإن كان قد استشهد فهنني » !!

وسارع أبو قدامة يقول :

– « بل إنه والله قد استشهد » !!

وفوجىء أبو قدامة بسؤال جديد ، عندما سمع المرأة تقول :

– « وما علامة ذلك » ؟؟

ولم يدرِ الرجل جواباً سوى أن يقول لها :

– « قتل » !!

فراحت توضح المراد من سؤالها ، فقالت :

– « هل قبلته الأرض أم لا » ؟؟

ودهش أبو قدامة لهذا السؤال يطرح عليه هكذا ، من غير مقدمات أو تمهيد ... وتعثر لسانه عن الإجابة ... فراحت المرأة تؤكد عليه سؤالها مرة أخرى :

ـ خبرني « هل قبلته الأرض أم لا » ؟!

ولم يجد بداً من أن يجيبها ، والأسى يعتصر فؤاده :

ـ « لا والله » ... إن الأرض لم تقبله !!

وكان أبو قدامة يتوقع جواباً على كلامه هذا ، يوضح له ما أشكل عليه ... غير أن الأمور سارت على نحو آخر ... فازدادت تعقيداً عندما سمعها تقول :

ـ « الحمد لله » !!

وخرت المرأة ساجدة ... سجود الشكر لله !!

في حين أن الرجل وقف جامداً لا يتحرك ... لا يدري ما يفعل ... ولا يعرف ما يقول ... لقد تتالت الحوادث عليه ، بشـــكل منهل : حتى إنه لا يدري ماذا يفعل ... وكأنما هو يعيش في دوامة ... فأسند كتفه على باب الدار ، يعتمد عليه ، حتى لا يسقط على الأرض !!

وما كادت المرأة تنتهي من سجود الشكر ، حتى انصرفت إلى صندوق خشبي كان في فسحة الدار ...

« ثم فتحت الصندوق ... وأخرجت مسحاً أسود ، وغُلّاً[1] من حديد) ... وأحضرتهما إلى أبي قدامة ..

وما كادت تضعهما بين يديه حتى أخذت تقول :

ـ لعلك استغربت ما قلت لك يا أبا قدامة !! سأقص عليك ما يسرّي عنك !!

وبعد لحظة من الصمت حزينة ، أردفت تقول :

ـ كان ابني « إذا جُن الليل يلبس هذا المسح » ويغُل (يقيّد) يده بهذا الغُل » يتذلل بين يدي ربه ... يتواضع لمولاه ... لعله يكون أقرب بين يديـــه ، وأجدر بالاستجابة لدعائه ...

وبصوت الملهوف المستغيث ، كان يرفع صوته بالدعـاء ويقول :

ـ « إلهي لا تحشرني إلا من حواصل الطير وبطون السباع »!!

ثم يذرف دمعة سخينة وهو يقول :

ـ « إلهي .. مالي عين تراك ... احشرني من حواصل الطير وبطون السباع »!!

وبعد أن صمتت المرأة قليلاً تترنم بهـذا الدعاء ، تابعت تقول :

---

(١) المسح : كساء خشن . غلّا : قيداً .

– وها هو ذا ابني اليوم « وقـــد استجاب الله له دعاءه هذا » ... وتحققت له أمنيته ... ففاز بشرف الشهادة ... وصار طعاماً للطيور والسباع ... وبإذن الله ، سيحشر يوم القيامة من بطون السباع وحواصل الطير ... حتى إذا ما سأله الله تعالى يوم القيامة : فيم فُعل فيك هذا ياعبدي ... أجابه بقوله : فيك ومن أجلك يارب !!

وهزت الأم رأسها ، وأشرق وجهها وهي تقول :

– هنيئاً لك يابني ... لقد فزت فوزاً عظيماً !!

لقد سرت على الدرب الذي رسمه أبوك بدمائه الزكية ، وسبقك فيه أخوك !!

رحمكم الله جميعاً ... ورضي الله تعالى عنكم جميعاً ...

واستصغر أبو قدامة نفسه ، واستقلّ جهاده خلال السنوات الطويلة السابقة ...

ولم تبق قدماه قادرتين على حمل جسمه ... فارتعشتا من تحته ...

ولم يبق أبو قدامة مطيقاً لحبس الدموع التي كانت تريد أن تنفجر من عينيه ...

فانصرف غير مودع ... بعـد أن ترك خرج الغلام على الباب ...

وما كاد يدير ظهره حتى تفجرت عيناه بالدموع ، غزيرة مدرارة ... إنها دموع الأسى على نفسه ، بعد أن كان يعتد بجهاده خلال سنين طويلة . . . ودموع الإكبار ، لهذه المرأة العظيمة ، التي لم يحل فقرها دون أن تساهم في المعركة .

إنها دموع الاحترام ، لهذه المرأة العظيمة ، التي أحسنت تربية ولدها على الجهاد وفنون القتال ، ودفعت بوحيدها إلى غمرات الموت ، وسجدت شكراً لله على أن أناله عظيم شرف الشهادة ...

إنها دموع الرجاء ، تستمطر شآبيب الرحمة على ذاك الأب الشهيد ، الذي كان خير قدوة لأبنائه ...

إنها دموع الإجلال ، لأسرة مكافحة مناضلة ، بذلت الدماء والأموال ،فرحة شاكرة ...

إنها دموع التقدير ، لأسرة يصح أن تكون الأنموذج الذي يحتذى ...

انصرف أبو قدامة ، وقد انطبعت في مخيلته صورة هذه الأم البطلة ، وهي تقدم شعرها للمعركة ، وتدفع بأولادها للموت الواحد بعد الآخر ...

انصرف أبو قدامة ، وقد عادت إلى ذاكرته صورة ذاك الغلام ، وهو يجود بأنفاسه الأخيرة ...

انصرف أبو قدامة ، وقد تخيل الأب والابن اللذين سبقا الغلام في نيل شرف الشهادة ...

انصرف أبو قدامة ، وقد استيقظت في نفسه مشاعر رفيعة، من الفداء والتضحية والبطولة التي مابعدها بطولة ، وراح يقول :

– حقاً إن هذا البيت مهد البطولات !!

فيه ظهرت البطولة بأسمى معانيها !!

وفيه برزت التضحية بأجمل أثوابها !!

وفيه تجلى الصبر بأرفـــع أنواعه !!

وفيه تبدي الشكر على أحسن أحواله !!

حقاً إن هذا البيت مهد البطولات !!

★ ★ ★

أمنية بطل (١)

منذ سنتين ونيف ، كنت وسط الجموع الزاخرة التي تطوف حول البيت الحرام ، وقد ارتديت ثياب الإحرام البيضاء ، فغدت كالعروس ليلة زفافها ، في أبهى حلة وأجمل منظر ... بل لكأن الملائكة قد هبطت من السماء إلى الأرض ، فبدت متلألئة بأنوارها الوضيئة ...

في تلك الجموع ، اختلط الأبيض بالأحمر ، والأسود بالأصفر فغدوا جميعاً كتلة واحدة ، لايستطيع الإنسان أن يميز فيها واحداً عن واحد ... إنه بحر زاخر من الكتل البشرية المتساوية في المظهر ، تندفع بحماسة حول بيت الله العتيق ، مستجيبة لنداء أبينا إبراهيم ، ملبية أمر المولى سبحانه وتعالى ، ترفع أصواتها بشعار الحاج : لبيك اللهم لبيك ... تجأر أصواتها بالدعاء والتضرع ...

(١) استقيت معلومات هذه القصة من كل من الاستاذ الفاضل « أسامة الخاني » والاستاذ « عثمان بغدادي » ، هذا بالاضافة إلى صلتي المباشرة بالكثير من حوادثها .

كل منهم يلهج لسانه بما يكنه فؤاده من أمنيات في هذه الحياة...
حتى إن مكنونات نفوس العباد ، لتبدو في هذا المكان - دون سواه - واضحة للعيان ، جرداء عارية ، وقد تمزق برقع الغشاوة عنها ... وعلى الرغم من ذلك فإنه مامن أحد يتجسس على حقيقة نفوس الآخرين ، فلكل منهم من الهموم مايشغله عن النظر إلى عيوب الآخرين ... لقد التفت كل واحد إلى نفسه ، ليمتن صلتها بربها ، فأصبح الناس في شغل شاغل ، يصرف كلاً منهم عن فضح حقيقة الآخرين ...

لقد بحت الحناجر ، وارتفعت الأصوات بالدعاء ... كل منهم يعرض مايريد ... فإذا ما وصلوا إلى الحجر الأسعد ازدحموا على تقبيله ومن لم يستطع الوصول إليـــه اكتفى بالإشارة من بعيد بالسلام ... إنهم يحتشدون لتقبيل هـــذا الحجر ، وهم يذكرون « عمر بن الخطاب » عندما وقف يخاطبه بقوله : إني لأعلم أنك حجر لاتضر ولاتنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك[1] ... ويغضي الناس ، أمام هذا الرمز السامي ، إجلالاً وتكرمة ... وتخفق قلوبهم بنور الله ، أمام هـذا الشعار الإلهي الرباني ... ثم يتابعون طوافهم حول البيت العتيق ...

في حين يقف بعض الناس ، من ذوي الحاجات الصعبة ، الذين لاتقنع نفوسهم بهذا القدر من الدعاء أثناء الطواف ... يقفون

(١) رواه البخاري ومسلم

في الملتزم عقب الحجر الأسعد ؛ أمام باب الكعبة ، أمام باب بيت الله ... يلحون بالدعاء ... يذرفون دموع الندم ،ودموع التضرع والتذلل، بين يـــدي رب السماوات والأرض ... يناجون مولاهم وهم يشعرون أنهم في أقرب موضـع إلى الله في الأرض ... يبتهلون إلى ربهم بصدق الملهوف ، وبكاء العاشق الولهان ...

اقتربتُ من الملتزم ، ووقفت عند باب الكعبة المشرفة ... فرأيت شاباً طويلاً ، في ريعان الشباب ، قد التصق بجميـع جسمه على عتبة باب الكعبة ، فلم يبد منه إلا ظهره ... وقف يدعو بقلب مجروح ، وفؤاد مكلوم ... بقلب ملؤه الشوق والحب والوجد... ينادي بملء فيه مردداً قول الشاعر :

صوّح[1] النبتُ فاسقـــه شربةً من سحائبك[2]
وأغثنـــا فإننـــا في ترجي مواهبـــك

وما زال يلهج بالدعاء ، ويرفع صوته مردداً هذين البيتين حتى خشيت عليه والله ...

وخيل إلي ، أنه شاب أسرف على نفسه ... قد أتى تائباً مبتهلاً إلى مولاه ... يرى عظيم ذنبه ، ويطمع بمغفرة ربه ... أتى تائباً ، توبة صادقة ، يذرف دموع النـدم غزيرة حـارة ،

---

(١) صوح النبت : يبس وجف .
(٢) يشبه الشاعر نفسه بشجرة يبست من شدة الظمأ .

حتى اخضلت لحيته ... أتى تائباً ، يرجو عفو مولاه ، يجأر بالدعاء حتى بحّ منه الصوت وانقطع النفس ...

فقلت في نفسي : والله إن صدق هذا الإنسان في الإقبال على الله ، والإلحاح في الدعاء ، لكفيل - وحده - أن يكون سبباً في قبول توبته ، ومغفرة ذنبه ، مهما يكن هذا الذنب خطيراً ... وتردد في نفسي قوله تعالى عن ذاته العلية : « غافر الذنب وقابل التوب »[1] . كما تذكرت قوله جل وعلا : « ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ، وأن الله هو التواب الرحيم »[2] .

وتصورت قصة ذاك الرجل ، الذي كان فيمن قبلنا من الأمم وأخبرنا عنه رسول الله ﷺ أنه قتل تسعة وتسعين شخصاً، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدُل على راهب ، فأتاه وأخبره أنه يريد أن يتوب إلى الله ، فقال له : إنه لاترجى له توبة ... فانبرى إليه القاتل ، وطعنه بمدية كانت في يده ... فبلغ به عدد من قتلهم المئة ... ثم إنه بعد مدة راوده الحنين إلى التوبة .. فسأل عن أعلم أهل الأرض فدُل على رجل عالم من علماء زمانه، فقص عليه أمره ، وسأله عما إذا كانت تقبل له توبة ، فقال له

---

(١) سورة « غافر » : الآية - ٣ - .

(٢) سورة « التوبة » : الآية -١٠٥- .

ذاك العالم : « نعم ، من يحول بينك وبين التوبة » ؟ ونصحه بأن يتوجه إلى الأرض الفلانية ليلتقي فيها بأناس يعبدون الله فيتعبد معهم ، لعل الله يقبل منه توبته ... واتجه القاتل التائب إلى أرض الطاعة التي أشار إليها ذلك العالم ... وفي الطريق توفي الرجل ، وحضرت ملائكة الرحمة لتأخذ بروحه إلى جنان الله الواسعة ، وحضرت ملائكة العذاب لتأخذ بروحه الى جهنم وبئس المصير ... وتجاذب الطرفان روح الرجل ، كل منهما يريد أن يأخذ بها إلى جهة مغايرة لجهة الآخرين ... ملائكة الرحمة تقول : إنه جاء مقبلاً بقلبه ، تائباً إلى الله تعالى ... لقد تاب إلى الله توبة نصوحاً ، وأقبل على الله بقلب طاهر خال من كل زيغ ، فينبغي أن يكون مصيره إلى الجنة ... وملائكة العذاب تقول : إنه سفك دماء الأبرياء ، وفعل وفعل ، ولم يصل بعد إلى أرض الطاعة ، ولم يعمل خيراً قطُّ ... ونزل ملك من السماء ، يفصل بين الطرفين المتنازعين ... وكان حكمه الذي قبله الجميع ، أن تقاس المسافة التي بينه وبين أرض الطاعة ، والمسافة التي بينه وبين أرض المعصية ، فإن كان أقرب إلى أرض الطاعة أخذته ملائكة الرحمة إلى جنان الله الفسيحة ، وإن كان أقرب إلى أرض المعصية أخذته ملائكة العذاب إلى الجحيم ... فأوحى الله إلى أرض الطاعة أن تقرّبي ، وإلى أرض المعصية أن

تباعدي .. وقيست المسافتان ، فكانت أرض الطاعة أقرب إليه بشبر واحد ... فأخذته ملائكة الرحمة ، محفوفاً بالإكرام ، تصعد به إلى نعيم مقيم في جنان الله الخالدة ...

تذكرت قصة هذا الرجل التائب ... ونظرت في هذا الشاب الملتجىء إلى باب الكعبة ... يبكي ويتضرع حتى بحّ صوته ... فقلت في نفسي : مهما يكن ذنب هذا الانسان عظيماً ، فلن يكون أعظم من ذنب ذاك الرجل الذي قتل مئة نفس ! ومهما تكن توبة هذا الإنسان ، فإنها أبعد مدى من توبة ذاك الرجل القاتل ... ذلك أن هذا الذي يقف هنا أمامي، قد ترك أرض المعصية ... ترك الأهل والاخوان ... ترك المعاصي والفجور وأقبل على رب كريم ... دخل ضيافة الرحمان الرحيم ، في بيت الله العتيق ... لقد حل في أرض الطاعة ، بل في أقدس بقعة على وجه الأرض ، في أرض ، العبادة فيها تعدل مئة ألف من العبادة في غيرها ... وإن دموع الندم السخينة ، التي يبذلها اليوم ، لهي أكبر دليل على صدق توبته ؛ وستكون بفضل الله تعالى ـ خير شفيع له بين يدي ربه ... فلماذا أراه شديد الالتصاق بباب الكعبة ... يقف الساعات الطوال ... وكأنه آيس من قبول توبته لعظيم ذنبه ؟

وتابعت أحلل الموقف قائلاً :

– مهما يكن ذنب هذا الانسان عظيماً ، فان مغفرة الله أوسع ، وعميم فضله أعظم وأكبر !!

واستحضرت في ذهني حديث رسول الله ﷺ : (إن الله يقبل توبة العبد مالم يُغَرْغِر)[1] .

وتمثلت قوله ﷺ : (النادم من الذنب ينتظر من الله الرحمة ، والمعجب ينتظر المقت)[2] .

واقتربت من الشاب ، أريد تذكيره بعظيم فضل الله ... لعلي أخفف من روعه ... فقد كادت النفس تزهق ، لشدة مابه من هم وغم !!

وقبل أن أضع يدي على كتفه ، لأجتذب انتباهه وأحدثه بما يجول في خاطري ، أحببت أن أستمع إلى صرخاته المكتومة التي ما كنت افهم منها إلا كلمة يارب ... يارب ... تتردد بصوته المبحوح ... ويغيب الصوت ... فلا أكاد أفهم شيئاً وسط الأصوات التي كانت تضج من كل مكان ، تجأر إلى مولاها بالدعاء !!

---

(١) رواه « ابن ماجه » و « الترمذي » .
والمقصود بعبارة (ما لم يغرغر) : مالم تبلغ روحه الحلقوم .
(٢) رواه « الأصبهاني » .

ووقفت في محاذاة هذا الشاب ... أرهف السمع إلى مايدعو به ، لأعرف الذنب الخطير الذي اقترفه ، فأتمكن من معالجة ذنبه هذا ... لعلي أخفف عنه مابه من فزع شديد !!

وبالشد دهشتي !! لقد رأيته يشدد من قبضته على أستار الكعبة ؛ حتى لكأنه يريد أن يعصرها عصراً ، فيستنزف منها الرحمة والرضوان وهو ينادي :

يارب ... يارب ... إني أسألك بحق هذا البيت العتيق أن ترزقني الشهادة في سبيلك ...

رباه الشهادة ... الشهادة ... رباه لاتحرمني سؤلي ... رباه لاتخيب رجائي ... رباه لاتجعلني من المحرومين المطـرودين ... رباه ... رباه ...

وغمغم الصوت ، حتى لم يكن بمقدوري أن أفقه منه شيئاً، سوى الزفرة المجروحة ، التي كانت تخرج من أعماق رئتيه تحمل معها صوت رباه !!

وأعدت يدي إلى مكانها ، بعد أن كادت تلتصق بكتفه ؛ وصرفت النظر عن خطابه ... وعرفت أنني أقف أمام إنسان على مستوى رفيـع من السمو الايماني ... لقد احترق قلبـه حباً

في الله ... فهو لايطيق صبراً عن اللقاء ... فيتمنى أن يختم حياته بالفوز بشرف الشهادة في سبيل الله ...

وأحببت أن أمتع ناظري برؤية هذا الشاب الطاهر ، الذي باع نفسه لله ، يتحرق على لقاء وجـــه ربه ... لعلي أقتبس شيئاً من نور وجهه الوضاء ...

ومن خلال يديه اللتين كان يرفعها إلى الأعلى ، يمســـك بأستار الكعبة ، فيغيب وجهه عن الناظرين إليه ... من خلال فرجة كانت بين يده اليسرى ووجهه ، استطعت أن أرى ملامح ذلك الوجه ...

– يبدو لي أنه « غالب » ... الأستاذ غالب !!!

– يا الله ... إنه هو !!

– ولكن ما هذه اللحية ؟! إني أعرفه لا لحية له !!

– بل إنه الأستاذ غالب نفسه !! ولربما يكون قـــد أرخى لحيته منذ أن قصد الحج !!

ولم أتمالك نفسي تجاه هذه المفاجأة ... وشعرت أنني في دوامـــة ...

وهبطت إلى الأرض ... بين أرجل المبتهلين الداعين ... لعلي أستعيد شيئاً من نشاطي ...

وراحت مخيلتي ، تعرض علي شريطاً من حياة « غالب » كما عرفتها خلال سنين طويلة :

– لقد عرفته يوم أن كان طالباً في معهد الأنصار ... لقد كان على أشد ما يكون حيوية وذكاء ...

– وعرفته في مسجد « أبي النور » ... فكان شاباً مؤمناً ، يعمل في حقل الدعوة إلى الله ... قد باع نفسه لله ، لا يرجو شيئاً من هذه الحياة إلا أن يرى كلمة الله هي العليا ...

– ورأيته طالباً في جامعة دمشق . . يجمع بين كليتي الشريعة والآداب – قسم اللغة العربية ... ويحصل على الشهادتين معاً ... ويتفوق على أقرانه ... وينال بذلك جائزة مالية من الجامعة ...

لقد نظر في هذه الجائزة المالية التي قدمت إليه ... فرأى أنها نظير تفوقه ... ولما كان يعتقد أن تفوقه العلمي ما كان إلا بدافع من الشيخ المربي ، الذي أحسن توجيهه ليحصّل على الدين والدنيا معاً ، وغرس فيه من النشاط وعلو الهمة ما لا يمكنه أن يبلغه لولا فضل صاحب الفضل ... لذلك فهو رأى أن شيخه هو الشخص الوحيد الذي يستحق هذه الجائزة ، لأنه هو الذي حفزه إلى التفوق في طلب العلم ... ومن أجل ذلك فإنه قصد

إلى منزل شيخه ، ليقدم له هذه المكافأة المالية ، إقراراً بفضله ... وما كان من شيخه ، يومذاك ، إلا أن قال له وهو يمسك الأوراق النقدية المقدمة إليه : يا ولدي ، لقد قبلت منك هذا المبلغ من المال ، حتى لا يفوتك ثواب نيتك وإخلاصك في طلب العلم ؛ وها أنذا أقدم إليك هذا المبلغ هدية مني إليك ، لأنك كنت الولد المجد البار ...

– لقد عرفت « غالباً » في حقل الدعوة إلى الله ... لقد كان كتلة نشاط وحيوية ... يعمل ليل نهار .. لا يصرفه عن ذلك دراسة أو عمل ... وهدى الله على يديه من الشباب العدد الكبير ، حتى كان مدرسة في الدعوة ، ومدرسة في الهداية ، ومدرسة في الأخلاق الكريمة الفاضلة ، ومدرسة في التقوى والإيمان ...

– لقد عرفت « غالباً » ، يدعو إلى الله عن طريق المسرح ... فكتب ومثّل عدداً من التمثيليات الهادفة ، التي تعمل على تهذيب الأخلاق وغرس الإيمان في القلوب ... وكانت ذروة أعماله الفنية الهادفة مسرحية « يوسف »[1] التي ألفها واشترك في تمثيلها بدور « يوسف » ... وقد مثلها يومذاك في

---

(١) وهي مسرحية مطبوعة ، في ٩٦ صفحة .

مدرسة في « القابون » ... وقـد بلغ ريعها أحـد عشر ألف ليرة ، قدمها مساهمة منه في بناء جامع في حيه « القابون » ...

– لقد عرفت فيه مثالاً للمؤمن العامل ... فهو ما ينفك يعمل ليل نهار ، لا يعتريه الكلل ، ولا يطرأ عليه الملل ... همه أن ينقذ الناس جميعاً ، ويأخذ بأيديهم إلى طريق السعادة ، سعادة الدنيا والآخرة ، طريق الإيمان وتقوى الله رب العالمين ...

– لقد عرفت فيه الإنسان المحبب إلى النفس ، ذا الأخلاق العالية الرضية ، المتواضع لإخوانه وزملائه ، يخدمهم جميعاً ، ويمد إلى المقصر منهم يد المساعدة ...

لقد عرفت فيه الإنسان الذي يألف الناس ، ويألفـه الناس ... فـكان مثال المؤمن الودود ...

– وها أنذا اليوم أراه يتضرع إلى مولاه ، ليتوج له اعماله السامية ، بشرف الشهادة في سبيل الله !!

– ما أجمل هذه النفس الطاهرة !!

– ما أسمى هذا الإخـلاص الذي يشـع من قلب مؤمن ذاكـر !!

– إنه لا يريد شيئاً في هذه الحياة إلا رضى الله ...

شعاره تلك العبارة التي كان يرددها مراراً وتكراراً في اليوم الواحد :

« إلهي أنت مقصودي ، ورضاك مطلوبي » !

– إنه رجل قد تعلق قلبه بمولاه ، فباع نفسه لله ، لا يريد غير العمل من أجل ما يرضي الله ... وها هو ذا اليوم ، يلح في الدعاء ، لينيله الله شرف الشهادة ...

وتذكرت تلك العبارة التي كان يجيب بها أصدقاءه ، عندما يعرضون فكرة الزواج ... لقد كان يقول لهم :

إنني أخطب الحور العين ... وهل هناك أحسن من أن يخطب الإنسان الحور العين ؟؟! إن مهرها لغال جداً ... وأنا أجمع المهر ... فإذا ما جمعت المهر المناسب لها ، تقدمت للخطبة ، وطلبت الزواج !!

ورحت أقول لنفسي :

– إنه جاد والله في الطلب !!

– لقد جمع المهر وزيادة ... فأعماله الصالحة وفيرة والحمد لله ...

– ها هو ذا اليوم ، يطرق باب الجنة ، بيد مضرجة بالدماء ، يخطب الخلود في الفراديس العليا ، ويعرض ما يملكه

من ثمن ... إنه يعرض روحه وحياته ... وهل يملك الإنسان أكثر من أن يجود بالروح في سبيل من يحب ؟؟!

إن أمنيته الغالية أن يجود بنفسه ، وينال عظيم شرف الشهادة !!

• • •

وبعد ساعة من الزمن ، غرقتُ خلالها بشيء من التأمل في ماضي هذا الإنسان الذي يقف أمامي ، نهضت واقفاً ، فرأيت « غالباً » وهو يجفف عينيه المخضلتين ، ويمسح عارضيه المبللين بالدموع ، وقد أشرق وجهه بابتسامة الرضى ... ابتسامة تنم عن سعادة كبرى ما بعدها سعادة في هذه الحياة ، وكأنما هو قد رأى جميع أمنياته تتحق بين يديه !!

ورأيته ينخرط في صفوف الطائفين المتزاحمة ، ويغيب عن ناظري ، فلا أكاد أرى إلا كتلًا من البشر متراصة ، ولا أكاد أسمع إلا أصوات الملبين تشق عنان السماء بالعبارة المأثورة : « لبيك اللهم لبيك » !! فأعود إلى التلبية معها ... وقد بلغ بي التأثر بغالب ، أني وجدت لمعنى التلبية طعماً جديداً ، ما كنت أجده قبل أن أقف موقفي هذا في الملتزم ،

الى جانب « غالب » ... ورحت أطوف وأنا أستمتع بالنداء السماوي التاريخي ، وقلبي يطرب للشـــعور الوجداني الذي سيطر على مشـــاعري أثناء الطواف ... حقاً لقد كنت أحس بمعان ، لا يمكن للقلم أن يترجمهـا ، وأنا أقول : « لبيك اللهم لبيك، لبيك وسعديك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » .

* * *

ولم يكد يمضي عام على موقفي هذا ، حتى رأيت «غالباً» يتقدم بطلب ، ليساق إلى خدمة العلم ...

وفي كلية الاحتياط ، كان زملاؤه يرون فيه مثالاً للاندفاع الذاتي ، في الإقبال على تعلم الفنون العسكرية القتالية ... وعلى الرغم مما للدراسـة والتدريب الشاق ، من أثر في بعث الملل في النفوس ، فقد كان « غالب » دائماً عالي الهمة ، لا تحد من عزيمته مصاعب الحياة العسكرية التي لم يكن يألفها من قبل ... متجدد النفس ، لا يحد من تفتح روحه البهجة رتابة الحياة التي تبعث على السأم !!

● ● ●

أنهيت الدورة العسكرية التدريبية ، التي كان فيها «غالب» قبل موعدها بثلاثة أشـــهر ، نظراً للظروف التي كانت البلاد تمر بها ...

وما أشـــدها من فرحة ، عندما أبلغ فرزه إلى إحدى القطعات المقاتلة على الجبهة !!

لقد حصـل على غاية المنى ... أن يجاهد ... أن يقاتل الأعـــداء الذين اغتصبوا الأرض ، وقتلوا الأنفس ، وسلبوا الأموال ...

إنها فرصة العمر ... أمنيته الغالية ، وقد فتح الباب إليها عريضاً واسعاً ...

لقد كان يحدث نفسه طويلاً بالجهاد ... ويتمنى لو يُكتب له أداء هذه الفريضة الدينية ، التي أصبحت فرض عين على كل مستطيـع قادر ...

وها هو ذا قد تدرب على فنون القتال ، وأعطي السلاح الفعال المناسب ، وكلف بالذود عن الحمى ، فلمـــاذا لا يبتهج ويفرح ، فرحته بأداء الفرائض الإسلامية الأخرى ؟؟

أمن المشقة يفر ، وهو يعلم أن الثواب عند ربه على قدر المشقة ؟!

أم من الأعباء الثقيلة ، التي تلقى على عاتق جندي في أمة تتأهب للقاء عدو غادر مكار ؟!

أم من الانزواء بعيداً عن الأهل والأصحاب ، في الخنادق والمعسكرات ، وهو يعلم أن مقامه هذا ، خير له عند ربه من العبادة ، ما دام يبتغي بذلك وجه الله ؟! إنـــه يذكر جيداً حديث رسول الله ﷺ :

(رباط يوم وليلة ، خير من صيام شهر وقيامه) [1]

أم إنه يخشى الموت ، والموت تحفة المؤمن ؟!

إن الجهاد طريق إلى الشهادة ، والشهادة طريق إلى الجنة ، والجنة هي الخلود والنعيم المقيم ، فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر !!

إذن فلماذا لا يطرب ، ولا يفرح ، ولا يبتهج ، عندما تم فوزه إلى الجبهة ؟؟!

لا شيء يمنعـــه من ذلك ، ما دام يبتغي رضى الله ، وما دام يرجو ثواب الله ... إنها عبادة ، عبادة ينال عليهـــا جزيل العطاء ، من الفضل الإلهي العظيم !!

● ● ●

---

(١) رواه « مسلم »

وراح « غالب » يزرع في نفوس جنوده الإيمان ... الإيمان العميق بالله ، الذي يعتبره خير سلاح للمقاتل في المعركة...

فبالإيمان ... يستطيع المقاتل أن يثبت في وسط المعامع والشدائد ، لا يتراجع ، ولا يتزحزح قيد أنملة ، ولو كان دون ذلك الموت ... كيف ، وهو إذا ما تراجع في غير مصلحة إسلامية ، يبوء بغضب من الله ؟! قال تعالى : « وإذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره ، إلا متحرفاً لقتال ، أو متحيزاً إلى فئة ، فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم ، وبئس المصير » [1] .

وبالإيمان ... يستطيع المقاتل أن يجيد استعمال سلاحه ، فقلبه ثابت لا يتزعزع ، لا تخيفه أصوات القنابل ، ولا تزعزعه الدبابات ، ولا يبالي بالموت ، بل على العكس من ذلك يفرح بالموت ... فثبات القلب الذي يورثه الإيمان ، من أهم الأمور في إحكام استعمال السلاح ... وإذا لم يكن إيمان تضيع الفائدة من السلاح مهما كان السلاح جيداً ، إذ ما الفائدة من السلاح إذا لم يكن إنسان من ورائه ، يستميت في سبيل حقه ، ويقدم روحه رخيصة ، غير هياب ولا وجل ؟!

---

(١) سورة « الأنفال » : الآية - ١٥ -

وبالإيمان ... يحصل الإنسان على الصبر ، بل إن الصبر شطر الإيمان [1] ... وهل يفوز في معركة من لا يصبر على بلوائها وشدائدها ؟؟ قال تعالى : « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ، إن الله بما يعملون محيط » [2] .

وبالإيمان الحقيقي ... يكتسب المقاتل الثقة المطلقة بنصر الله ، فلا يتردد ولا يتزعزع ... لا توهن أعصابه قوة العدو وصولته مهما بلغت ، ولا يخيفه كثرة عدوه ووفرة عتاده ... كيف ، وقد قال خالد بن الوليد – رضي الله عنه – عندما حُدّث عن كثرة العدو واستعداداته الضخمة للحرب : « إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال ... والله لوددت أن فرسي الأشقر بريء من توجعه ، وأنهم أضعفوا في العدد » [3] .

وبالإيمان الحقيقي ... يستمد المؤمن التأييد من الله ، ويستدر النصر من عند الله ، من لدن « العزيز الجبار المتكبر » [4] !! وكيف لا يكون ذلك ، والنصر من عند

---

(١) «الصبر شطر الإيمان» حديث شريف رواه «أبو نعيم» في «الحلية»
(٢) سورة «آل عمران» : الآية – ١٢٠ –
(٣) «البداية والنهاية» جـ ٧ الصفحة – ٩ –
(٤) «سورة الحشر» : الآية – ٢٣ –

الله ؟! قال تعالى : « وما النصـــر إلا من عند الله العزيز الحكيم »[1] ... وقال جل من قائل : « والله يؤيد بنصره من يشاء ، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار »[2] ؟؟

كيف لا يكون ذلك ، وقد جعل الله نصـرته للعباد مشروطة بطاعتهم له ، فقال جل وعلا : « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »[3] .

بالإيمان الحقيقي ... تستحق الأمة النصر من عند الله... فقد قطع المولى سبحانه وتعالى عهداً على نفسه بنصر المؤمنين ، فقال جلت قدرته : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين »[4]

● ● ●

ثم راح «غالب» يبين لجنوده المقصود من الإيمان الذي جُعل شرطاً للنصر ، وسبيلاً إلى الفلاح ... ذلك أن الإيمان ليس قياماً بحركات الصلاة فقط ، وليس امتناعاً عن تناول الطعام والشـراب وقت الصـوم فحسـب ، وليس أشكالاً ومظاهر

---

(١) « سورة آل عمران » : الآية - ١٢٦ -
(٢) « سورة آل عمران » : الآية - ١٧ -
(٣) « سورة محمد » : الآية - ٧ -
(٤) سورة « الروم » : الآية - ٤٧ -

للعبادات ، بل إن الإيمان أسمى من ذلك وأعظم ... فقد قال النبي ﷺ : (ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ، ولكن هو ما وقر في القلب وصدقه العمل)[1] !!

إن الإيمان نور إلهي يستقر في أعماق قلب الإنسان ... وينتج عن ذلك تقيد بجميع أوامر الله ، وانتهاء عن جميع نواهي الله ... ومن أول الأمور التي يأمرهم الله عز وجل بها في هذا المجال ، قوله جل وعلا : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم ، لا تعلمونهم ، الله يعلمهم »[2] .

إنها تأمر المسلم أن يبذل جميع الطاقات في الإعداد والاستعداد للقاء العدو ، بكل أنواع القوة الحربية المتعارف عليها في زمانه ... وزماننا هذا يتطلب حشد الدبابات والطائرات بدلاً من الخيل ... ويتطلب استعمال المدافع والصواريخ المضادة للدروع والطائرات بدلاً من استعمال السهام والرماح ...

● ● ●

وعمل « غالب » على أن يبث في نفوس جنوده روح

---

(١) رواه « ابن النجار » و « الديلمي » في « الفردوس » .
(٢) سورة « الأنفال » : الآية — ٦٠ —

الإعداد والاستعداد للقاء العدو ... فدربهم خير تدريب ... حتى صاروا على أتم ما يكون من الجاهزية للقتال ... وبث فيهم روح الاستبسال والاستماتة في سبيل الله ، فاكتملت لهم بذلك التعبئة النفسية بالإضافة إلى التعبئة العسكرية ... فصاروا بذلك موضع رضى الله ، وموطن ثناء العباد ...

● ● ●

وبرقت في الجو علائم المعركة ، التي تهفو إليها نفوسهم ...

منعت الإجازات ... وأعلنت حالة التأهب القصوى ...

ولازم « غالب » وجنوده مدافعهم المضادة للطائرات ... يراقبون الأجواء بحذر شديد ... يجلس كل منهم في مكانه المعدّ له ، وقد طال شوقه إلى ساعة تقبيل السلاح الذي بين يديه ، ليطلق حممه في الجو ، حماية للقطعات المقاتلة التي ألحقوا بها ...

لقد كانت ساعات الانتظار طويلة ... إنهم على موعد مع المجد ، على موعد مع إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة ... فلماذا تطول المدة ؟؟ ولماذا يحجز بينهم وبين ما يتمنونه ؟؟

● ● ●

وكان صباح العاشر من رمضان صباحاً يحمل معه بشائر الخير ، بشائر اللقاء مع الموعد الذي انتظروه طويلاً ..

إنه يحمل تباشير اللقاء مع ما تهفو إليه نفوسهم !!

لقد طال شوقهم إلى لقاء الله ، وهم يعلمون أن الله جل وعلا أشد إليهم شوقاً ... فلقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه »[1] .

وما إن ارتفعت الشمس في كبد السماء ، حتى تسلم « غالب » الأمر بالتهيؤ للتقدم ، حماية للقطعات المهاجمة ...

وأسرع « غالب » يجمع جنوده ، يبلغهم أن قد حان موعدهم مع المجد ... وأن طريق الشهادة قد غدا ممهداً ، يغري المؤمنين ... وهل هناك أحلى من أن يفوز المرء بالشهادة في هذا الشهر المبارك ... شهر الخير ... شهر رمضان ؟!!

وراح « غالب » يشرح ما أعده الله للشهيد من منازل رفيعة عنده ، فأورد لهم قول الله تعالى :

« ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله »[2]

---

(١) رواه « البخاري » و « مسلم »

(٢) سورة « آل عمران » : الآية — ١٦٩ —

وتابع « غالب » يقول :

– ويكفي الشهيد عزة ورفعة ، أنه خير الناس منزلاً يوم القيامة ... قال رسول الله ﷺ :

(ألا أخبركم بخـــير الناس منزلاً ؟) قالوا : بلى يا رسول الله قال : (رجل أخذ برأس فرسه في سبيل الله ، حتى يموت أو يقتل)[1] .

وأخذ « غالب » يبين لهم أن ساعة اللقاء مع المحبوب ، ســـاعة اللقاء مع رب العالمين ، قد أزفت ... وأن أبواب الجنان ، قد تفتحت مصـاريعها ، تنادي المؤمنين ، ليلجوا فيها ويسارعوا إليها ، قبل أن توصد في وجوههم ...

وضرب لهم الأمثلة من أعمال أولئك المؤمنين المجاهدين ، الذين باعوا أنفسهم لله ...

فضرب لهم المثل بذاك الصحابي « حِرام بن ملحان » الذي أتته طعنة قاتلة يوم « بئر معونة » فجمع دماءه النازفة بيديه ، ثم نضحها على وجهه ورأسه ، وصاح بأعلى صوته وهو يقول : (فزت ورب الكعبة)[2] !!

وضرب لهم المثل بـ « عُمير بن الحمام » ... ذاك الذي

---

(١) رواه « الترمذي »

(٢) رواه « البخاري »

كان مع رســـول الله ﷺ يوم بدر ، حين قال النبي ﷺ : (والذي نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل ، فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة) . فقال عمير ابن الحمام –وكان في يده تمرات يأكلهن- : « بخ بخ »[1] !! أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ؟! ثم قذف التمرات من يده ، وقال : والله إن انتظاري لأن آكل هذه التمرات لطويل ... وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل [2] !!

كما سـرد عليهم قصـة « عبد الله بن رواحة » ذاك الذي بادر إلى الجهاد ، في غزوة مؤتة ... وعندما أتى إليه أصحابه يودعونه قالوا له : « صحبكم الله ، ودفع عنكم ، وردكم إلينا صالحين ! » فما كان جوابه إلا أن قال :

لكنني أسأل الرحمان مغفرةً — وضربةً ذاتَ فرغٍ تقذف الزبدا[3]
أو طعنةً بيديْ حران مجهزةً — بحربة تنفذ الأحشاءَ والكبدا[4]
حتى يقال إذا مروا على جدثي — أكرم به غازياً لله قد رشدا!![5]

---

(١) كلمة تقال عند الاعجاب . وهي اسم فعل بمعنى أستحسن .
(٢) « تهذيب سيرة ابن هشام » ج ١ صفحة ١٥٧
(٣) الفرغ : السعة . الزبد : رغوة الدم .
(٤) مجهزة : سريعة القتل . تنفذ : تخترق .
(٥) الجدث : القبر .

وفي الطريق إلى « مؤتة » ، علم المسلمون أن عدوهم قد بلغ عدده مئة ألف ، في حين أن عددهم لا يتجاوز ثلاثة آلاف ، فراح المسلمون يفكرون في أمرهم ، ورأى بعضهم أن يكتبوا إلى رسول الله ﷺ يخبرونه بعدد عدوهم ، فإما أن يمدهم بالرجال ، وإما أن يأمرهم بمتابعة المسير إلى لقاء العدو ، فيمضون ولا يترددون ... غير أن « عبد الله بن رواحة » صاح يشجع الناس بقوله : « يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون ، الشهادة ... وإننا ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين : إما ظهور ، وإما شهادة »[1] .

فقال الناس : « قد والله صدق ابن رواحة »[1] ما خرجنا نبتغي غير الشهادة !!

وسار الناس في حماسة ، يتلهفون إلى لقاء عدوهم ، لا يردهم عن ذلك قوة عدوهم ولا كثرة جنوده التي حشدها !!

وما كادت المعركة تبدأ ، ويشتد القتال ، ويستشهد « زيد ابن حارثة » و « جعفر بن أبي طالب » حتى يستلم « عبد الله

(١) « تهذيب سيرة ابن هشام » جـ ٢ صفحة — ٤٧ —

ابن رواحة » راية الجيش ، ويعدّ نفسه لهجوم انتحاري على العدو ... فأنشأ يشجع نفسه ويقول :

يا نفسُ إلا تُقتَلي تموتي هذا حِمامُ الموت قد صَليتِ [1]
وما تمنيتِ قــد أُعطيتِ إن تفعلي فعلها هُديت [2]

وزال ما بنفسه من تردد ، وصمم على أن يشتري الشهادة التي عَرضت له بين الصفين ، فالتفت إلى نفسه يخاطبها بقوله : المعركة قائمة وأنت لازلت في الدنيا ؟! وألقى من يده قطعة من لحم ، لم يأكل منها سوى لقمة واحدة ، ثم أخذ سيفه ، وتقدم في خضم المعركة ، لا يبالي بشيء ، إلى أن نال شرف الشهادة !!

وما كاد « غالب » ينتهي من سرد هـذه القصص من البطولات ، على مسامع جنوده ، حتى راح يشرح لهم نظرته إلى الموت ... يحذرهم من أن يهابوا الموت ... فالموت في الحقيقة ليس إلا انتقالاً من الحياة الدنيا ، حياة الهموم والأسقام ،

---

(١) حمام الموت : قضاء الله وقدره . صليت : ألقيت في نار الموت.

(٢) ما تمنيت : يريد بذلك الشهادة ، فعلها : يريد بذلك ما فعله قبله كل من « زيد بن حارثة » و « جعفر بن أبي طالب » اللذين أقدما بالراية حتى استشهدا

إلى الحياة الآخرة ، حياة السعادة الأبدية ... وذكر لهم قول الشاعر :

لا تظنوا الموت موتاً إنه لحياة وهو غايات المنى

وتشوق الحاضرون للموت ... لقد صاروا يتمنون الشهادة في سبيل الله ، بلهفة وشوق ، تماماً كما يتمنى الجبان الرعديد الفرار من المعركة الحامية الوطيس ...

لقد جاشت في نفوسهم مشاعر البطولة والفداء ، حتى إن صدورهم صارت كالمراجل التي تغلي ، والبركان الذي تضطرم فيه النيران ... ولكنهم لا يجدون سبيلاً إلى تحقيق ما تهفو إليه النفوس ... فهم في موقف لا يصح فيه أن يتحركوا حركة من غير أمر ...

وشدوا على أعصابهم ريثما تمضي الدقائق القليلة التي سينفسون فيها عن عواطفهم المتأججة ...

غير أنهم لم يتمالكوا مشاعرهم ، عندما سمعوا قائدهم « غالب » يرفع يديه إلى السماء ، ويطلب منهم أن يؤمنوا على دعائه وهو يقول :

ـ اللهم نصرك ... اللهم نصرك ...

ـ اللهم لا تدع هذه المعركة تمر إلا وترزقني الشهادة ...

– اللهم الشهادة الشهادة ...

وتطلع « غالب » إلى السماء ... وابتسم ابتسامة ممزوجة بالدموع وقال :

– ها أنذا أرى أبواب السماء تتفتح ... تنادي المؤمنين : أن هلموا إلى بغيتكم ... أن هلموا إلى ربكم ...

– وها هي ذي موائد الإفطار الشهية ، قد نصبت بين السماء والأرض : تنادي المجاهدين الصائمين الصابرين ، ليفطروا على مائدة رب العالمين ...

وترفعت نفس « غالب » عن أن يكون مقصودها هذه الموائد ... وخشيت من أن تقع في الميل إلى ما سوى الله ، فارتفع صوته يقول :

– اللهم إني لا أريد إلا وجهك الكريم ... فيسر لي لقاءك يا رب العالمين ...

– اللهم إني صائم ، ولا أحب أن أفطر إلا في دار الخلود ، مع النبيين والصديقين ...

وانفجر الجميع بالبكاء ... حتى امتزجت كلمات « آمين » بأنين الباكين ، فصعدت إلى بارئها ندية ، قد رطبتها

عبرات الحاضرين ، وعمّقت أثرها زفرات المتأوهين ...

ومضت دقائق من الوجد والتأثر البليـغ ؛ لم يصرفهم عنها إلا طلقات المدفعية ، تلقي بوابل حممها على العدو ، وتحمل معها بشرى عظيمة ، طال شوق المؤمنين إليها ...

فصاح « غالب » يقول :

ـ هيا أيها الإخوة ... هيا فلقد فتحت أبواب الجنان لكم ...

ـ ها هي ذي الفراديس العليا قد تزينت تخطب ودكم...

ـ إلى الأمام أيها الجنود ... لا يتراجعن الواحد منكم فيبوء بغضب الله ...

• • •

واجتازت القوات السورية الخندق الترابي الضخم ، الذي أقيم على طول خط وقف إطلاق النـــار ... ودمرت جميع التحصينات المعادية ... وتقدمت القوات على امتداد الجبهة ... وتحطمت الأسطورة التي تقول باستحالة اجتياز خطوط وقف إطلاق النار !!

بدأت القوات في زحفهـا ، تحرر الأرض من أيدي من

عدّوا عليها ... تشد تارة بيدها على مدفعها ، ليدك تحصينات العدو ... وتضع تارة أخرى خدها على الأرض ، تمرغه على الثرى الطاهر ؛ لعل ذلك يخفف ما بهم من وجد نحو هذه الأرض التي اغتصبها العدو ردحاً من الزمن ، وكأنهم يجدون في تلمس هذا التراب ما يشفي غليل نفوسهم ...

لقد اشتاقوا إلى هذا الثرى الطهور ... وتشوّق التراب إليهم ... فهم يسارعون مندفعين إلى الأمام إلى لقاء الأرض الحبيبة ... والأرض تتحرك ، تريد أن تسارع إليهم ، غير أنها لا تستطيع إلى ذلك سبيلاً ، فتتزعزع تحت ضربات المدفعية ، وتقذف كتلاً من ترابها إلى الجو ، ليلامس وجوه المقاتلين ، وكأنما هي قبلات الأرض لأبناء هذه الأرض المخلصين ... تقذف كتلاً من ترابها ، لتنتثر في الهواء غباراً يملأ الجو ، فيدخل إلى أنوف أولئك المجاهدين ، لتحمي هذه الأنوف من شم رائحة نار جهنم والعياذ بالله !! وكيف لا تفعل ذلك وقد سمعت عن رسول الله ﷺ أنه قال :

(لا يجمع الله عز وجل في جوف عبد غباراً في سبيل الله ودخان جهنم ؛ ومن اغبرت قدماه في سبيل الله باعد الله منه النار يوم القيامة مسيرة ألف عام) [1] .

---

(١) رواه « احمد »

وزحف فوج المدافع المضادة للطيران ، مع الجموع المتقدمة إلى الأمام ، يحمي مؤخرتهم ، ويكيد لطائرات العدو ، فيمنعها من تحقيق بغيتها ...

واشتد القتال ... ومضى اليوم الأول و « غالب » يبدي من ضروب الاندفاع والحماسة ما جعل جميع من حوله يندفعون بحماسة منقطعة النظير ...

• • •

وفي صباح اليوم الثاني للقتال ... كانت سرية « غالب » تتمركز بين سريتي مدفعية مضادة للطائرات ... إحداهما من أمامه ، قريباً من القوات العدوة ، والثانية من خلفه تحمي المؤخرة ... حيث تؤلف هذه السرايا الثلاث الفوج المكلف بحماية المنطقة المحيطة بهم ...

وتحت وطأة نيران العدو الشديدة التي كان يقذفها بغزارة ليمنع تقدم القوات السورية ... وفي وسط معركة شديدة الضراوة ... تلقت قيادة الفوج أمراً بوجوب التقدم إلى الأمام ... وكانت تعليمات قيادة الفوج أن تتقدم السرية الموجودة في المؤخرة إلى الأمام ، حتى تصير السرية الأولى في

مواجهة العدو ... وبذلك تصبح سرية غالب السرية الثالثة ، بعيدة عن العدو ...

غير أن غالب ، سارع يرجو بالحاح أن تكون سريته هي المتقدمة ، وطلب أن تتاح له الفرصة ليكون أقرب إلى خطوط النار الأولى !!

وطار فرحاً عندما لبي طلبه ... وهنأ جنوده بهذا الأمر الذي يراه فوزاً وشرفاً له ولسريته !!

وتحت سيل من الضربات المعادية ، تقدم « غالب » مع طواقم مدافعه المضادة إلى الأمام ، حتى احتل مكانه ، في الصفوف الأولى ...

وبسرعة فائقة ، جُهزت المدافع للاطلاق ... ووقف « غالب » في مكان متوسط بين هذه المدافع ... يسدد الرمايات ... ويعطي أوامره للجنود ... يشجع هذا ويدفع ذاك ... ويوجه آخر إلى رمايات أفضل ...

وقف « غالب » موقفه هذا ، وهو يمسك الهاتف اللاسلكي بيد ... ويشير إلى طواقم المدافع بيد أخرى ... وكأنما كانت هذه اليد يداً سحرية تحرك القلوب ، وتدفع الهمم إلى إسقاط المزيد من الطائرات التي يعتز بها العدو ...

وبينما كان الجميع منهمكين بأعمالهم ... يتحدون غزارة الضربات المعادية ... إذا قذيفة تقع بينهم ... ويدوي صوتها دوياً يصم الآذان ... وتنتشر الشظايا في كل مكان ، تفري ما يواجهها بأقل من لمح البصر ... ورفع الجنود رؤوسهم ، ليتفقد كل منهم رفاقه ... فإذا هم يجدون قائدهم « غالب » وقد جثا على الأرض نصف راكع ، يضع يده على خصره ، وقد انحنى انحناءة تدل على ألم شديد يعاني منه ...

وأدرك الجنود أن قائدهم « غالب » قد أصيب ... فهبوا جميعاً لنجدته ، وكل منهم يتمنى صادقاً لو يفديه بنفسه !!

وبينما كانت يد « غالب » تضغط على جرحه ، لتوقف النزف ، وتخفف حدة الألم ... كانت عيناه تجيلان النظر فيما حوله ، تتفقدان إخوانه وأحبابه ...

وافتر ثغره عن ابتسامة رضى ، عندما رآهم يهبون من أمكنتهم وليس بهم شيء !!

غير أن عينه المتفحصة لمحت دخاناً يصّاعد من السيارة التي توجد فيها الأجهزة الضرورية لعملهم ... فأدرك أن السيارة قد أصيبت ، وأنها بدأت تحترق ، وأن الأجهزة الموجودة عليها قد أضحت في خطر شديد ...

وصـــاح بجنوده الذين أحاطوا به ، ليقدموا له كل ما يستطيعون من مساعدة ... صاح بهم لينصرفوا إلى الأجهزة الموجودة في السيارة وينقذوها ؛ فهي أهم في نظره من إنقاذه هو نفسه ... وطيّب خاطرهم بأن أخبرهم بأن جراحه بسيطة ... وأمرهم أمراً جازماً بالانصـراف إلى إنقاذ الأجهزة ، فهي أهم شيء في نظره ؛ وإذا ما تعطلت توقفت المدافع كلها عن العمل الجيد ، وبطلت فاعليتها ...

واستجاب الجنود لأمر قائدهم المحبوب ... وتركوه على مضض ، تنزف منه الدماء ... وهبوا مسرعين إلى إنقاذ ما يمكنهم إنقاذه من الأجهزة المهمة ، غير مبالين بالقصف الذي كان موجهاً إليهم بنيران مركزة !!

وما إن انتهوا من مهمتهم هذه ، حتى أسرعوا إلى قائدهم يتفقدونه ... فوجدوه مضـرجاً بدمائه ... قد أصابته شظية أخرى في رأسه ... إصابة بالغة ... فسقط مغشياً عليه ...

وخف الجميـع إلى انقاذه ... ولكن بعد فوات الأوان !!

ضمـدوا جراحه ليوقفوا النزف ؛ ريثما يصـل إلى نقطة الإسعاف !!

ووقف الجنود بخشوع ، أمام قائدهم المغمى عليه ، وقد انطلق لسانه – على غير شعور منه – يردد ما يجول في أعماق نفسه من أمنيات فيقول :

– هذا طريق السعادة ... ليسلكه كل من ينشد السعادة ...

– مرحباً بالشهادة في سبيل الله ... فإنها طريق الخلود ...

– مرحباً بلقاء ربي ...

– ما أجمل الإفطار على مائدة رب العالمين !!

– « إن هذا لهو الفوز العظيم ... لمثل هذا فليعمل العاملون »[1]

لقد غاب « غالب » عن آلامه المبرحة ... واستسلم لهدوء طويل ...

ثم فتح عينيه ، وقد حُمل على المحفة ... وابتسم في وجه الحاضرين وكأنما كان يلقي عليهم نظرة وداع أخيرة ...

وتحركت شفتاه الذابلتان ... وسمع جنوده همسانه وهو يقول :

---

(١) سورة « الصافات » : الآية – ٦١– .

ـ تابعوا درب النضـال أيها الإخوة ... فإنه شاق وطويل ...

ـ ثقوا بفضل الله ... لقد أعد الله للمؤمنين المجاهدين ، مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ...

ـ عليكم بتقوى الله أيها الإخوة الأبطال ... فإنها خير زاد لكم في حياتكم ، وخير ذخر لكم في أخراكم ...

وبينما كانت المحفة توضع في السيارة ... رفع « غالب » يده إلى الأعلى قليلاً ، إشارة إلى تحيته الأخيرة لهم ... وافترّ ثغره عن ابتسامة رضى عريضة ... وأغمض عينيه ، مستسلماً لنوم عميق ... وانطلقت السيارة مسرعة ، تنهب الأرض نهباً باتجاه نقطة الإسعاف !!

ووقف الجنود لحظات في أمكنتهم جامدين ... يحبس كل منهم دمعة كبيرة كانت تترقرق في عينيه ... يتجلد صابراً ، ولايرتضي لنفسه أن يكون أول باك ...

وانصرف كل منهم ، إلى حيث يخفي دمعة سخينة أبت إلا أن تسيل على خده ، حزناً على أخ حبيب ، غير أنه ما يلبث أن يتذكر كلمات « غالب »: « ثقوا بفضل الله ... فلقد أعد الله للمؤمنين

المجاهدين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » فيقول في نفسه :

— هنيئاً لك يا «غالب » ... لقد فزت برضوان ربك ... لقد نلت الشهادة ... وولجت الجنان والفراديس العليا ، التي فتحت أبوابها لك ...

— هنيئاً لك يا « غالب » ... فإنك ستفطر على مائدة رب العالمين ... مع النبيين والصديقين ...

— هنيئاً لك يا « غالب » ... وإنا على دربك لسائرون ... وإنا بك لمقتدون ...

• • •

ودوّت قذيفة في مكان قريب منهم ، فأعادتهم إلى واقعهم الذي هم فيه ... وتذكروا قول غالب :

« وتابعوا درب النضال أيها الإخوة ... فإنه شاق وطويل » فشمروا عن ساعد الجد ، والتفتوا إلى مدافعهم ، التي آثرها غالب على نفسه ، ليطلقوا حممها وهم يقولون :

— عهد علينا يا « غالب » أن نثأر لك ...

— سنثأر لك يا غالب ...

– ووالله لن يهدأ لنا بال قبل أن نأخذ بثأرك !!

وفي المساء أفطر الصـائمون ... وامتنع جنود غالب عن تناول طعام الإفطار ... فقد تشـــنجت حلوقهم ، ولم تبق مطيقة ابتلاع كأس من الماء يبل العروق ، ويذهب الظمأ !!

ومضت ساعات من الليل رتيبة هادئة ... وجنود غالب مطرقون واجمون ، وقد ملأ أفئدتهم الحزن ، حتى كاد يقتلهم !!

وفي منتصف الليل ... بينما كان « غالب » مسجى على سرير في المستشفى ... كانت روح غالب تطوف حول جنوده ، الذين اجتمعوا في إحدى الحفر ، تحت ضوء القمر السـاطع ، وقد قام « واصف » – أحد زملاء غالب – يتلو عليهم وصية الفقيد ، التي كتبها بخط يده ، ليلة المعركة ، وائتمنه عليها... تلك الوصية التي ابتدأها بقوله :

« الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله :

« والدي الحنون ، إخوتي الأحباب ... أكتب وصيتي هـــذه وأنا على خط النار الأول ... ولا أدري ، فلعلي

لا ألقاكم بعد اليوم ... كما أنني لست متأكداً من وصول كلماتي هذه إليكم ...

« فإن انتقلت إلى دار الخلود والبقاء ـ وأسأله تعالى أن يجعلها دار الرحمة علينا والرضوان ـ ووصلتكم هذه الوصية ، فأرجو أن تلزموا الصبر والرضى بما قدره الله وقضاه ، وألا ترفعوا أصواتكم بندب ، وألا تفعلوا ما يفعله الجاهلون من تمزيق ثياب أو لطم خدود أو صراخ وما إلى ذلك ... فإنا جميعاً لله وإنا اليه راجعون ... « كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » [1] ... فإن قُبلت أعمالنا ، ورضي عنا ربنا ، فما أجمل لقاء الله !! وما أسعد تلك اللحظات التي تنتقل فيها روح المؤمن من سجن الدنيا إلى نعيم الآخرة !!

« والدي وإخوتي : إن خير ما أذكركم به تقوى الله ... فالحياة ظل زائل ... ومن لا ينتقل اليوم فسينتقل غداً ، وسيرحل في مسيرة طويلة ، ورحلة ربانية خالدة ... والموفق العاقل ، من عمل لتلك الرحلة ، واستعد لها ... والشقي التعيس من سوّف وأجّل ، واتبع شهوات نفسه ، وغفل عن

(١) سورة « الرحمن » : الآية ـ ٢٦ ـ

لقاء الله ... فأرجو ألا تنسوا ذلك اليوم الرهيب ، الذي نقف فيه أمام العليم الخبير ، الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ... لا تنسوا ذلك اليوم الرهيب الذي تشهد فيه علينا أيدينا وأرجلنا بما عملنا ... في ذلك اليوم لا نستطيع كذباً ، ولا نستطيع أن نخفي مثقال ذرة من أعمالنا ... وإنها لحقيقة لو تأملها الناس لما عصوا الله لحظة واحدة ... فأقبلوا على الله ، فهو الغفار الرحيم « لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » .

وبعد أن يطوي « واصف » بضع صفحات كتبها « غالب » بخط يده ، يعبر فيها عن تقديره للأستاذ أسامة ، ويذكّر إخوانه في المسجد بواجباتهم ويبين الحقوق المالية التي له والتي عليه ، ويعبر عن رغبته الأخيرة في توزيع جزء من تركته في أعمال الخير والإحسان ، والبر والوفاء ... بعد أن يطوي « واصف » صفحاً عن هذه الأمور ، يتابع تلاوة وصية الفقيد بقوله :

« وأنت يا أختي (فلانة) أطيعي والدك ، ولا تزعجيه ، فقد قرن الله تعالى طاعته بطاعة الوالدين ... وحافظي على دروس المسجد قدر الاستطاعة ... وحافظي على ذكر الله ...

« وأنت يا ابنة أختي (فلانة) اعلمي أن جمال الفتاة بأخلاقها وعقلها ودينها ... فإياك أن تتركي الحجاب ...

« ويا أخواتي الكريمات ... انتبهن إلى تربيـة أبنائكن وبناتكن ، تربية صالحة ... وخصوصاً أنت يا أختي (فلانة) انتبهي إلى تربية (رانية) الجميلة ، تربية صـالحة ، ربيها على طاعة الله ... وإياك أن يكون همك أن تظهريها بالملابس المغرية المكشوفة أمام الناس ... فإنك مسؤولة عنها أمام الله ..

« سلامي إلى والدي وشيخي وإخوتي وأخواتي وأستاذي وإخواني في الله جميعاً ...

« وأسأل الله أن يحفظ عليهم دينهم وإيمانهم ...

« وأسألهم الدعاء لي ...

« والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته »

وما كاد « واصف » يقرأ هذه التحية ، ويقرأ التوقيـع على هذه الوصية بعبارة : (الموصي محمد غالب الرفاعي) حتى انهمرت الدموع ... دموع الفرحـــة على ما آل إليه غالب من فوز بأمنيته الكبرى (الشهادة) ... ودموع الحزن ... حزن كل إنسان على نفسه ... لأنه فقد البطل المؤمن ... القائد الذي كان ينفح جنوده بنفحة الإيمان والاخلاص ، القائد الذي طلب الشهادة حثيثاً ، وسعى إليها بكل ما أوتي من قوة .

وترددت عبارات على ألسنة الحاضرين تقول :

ـ رحمك الله ياغالب ، رحمك الله يا غالب !

ـ هنيئاً ، لك الجنة !

ـ هنيئاً لك ، لقد فزت بما كنت تسعى وراءه !

ـ هنيئاً لك ، لقد سعدت برضوان الله تعالى !

ـ هنيئاً لك ، لقد لقيت ربك وهو عنك راض !

● ● ●

وفي أصيل اليـوم الثالث عشر من رمضان ، بينما كانت الشمس ترسل أشعتها صفراء واهنة وانية ، وكأنها إشعاعات من الحزن العميق ، تفيض على الكون كله ، فيبدو كل شيء فيه حزيناً فاتراً ، احتشد جمع غفير من الناس ، حول حفرة من الأرض ، سميت قبر « غالب » ، وشهـد هؤلاء الناس جثمان « غالب » وهو يدس في تلك الحفرة ، ليغيب هناك !

لقد كان الناس من حولِ القبر يقفون وقد ران على محياهم سحابة من الحزن العميق ، لقد وقفوا حول القبر ، وقلوبهم تعتصر ألماً ، على شاب ليس ككل الشباب ، وقفوا وهم يتمنون

من كل قلوبهم ، لو يفتدونه بالأنفس والأولاد ، ولو كان يفتدى بأعز مافي الدنيا لافتدوه ، ولكنه قضاء الله وقدره ، ولا يسع الإنسان إلا أن يستسلم للقدر بعد وقوعه ، ولا يزيد على أن يقول: لاحول ولا قوة إلا بالله ...إنا لله وإنا إليه راجعون !

وعم الحزن حي الفقيد ، وخيم الأسى على كل بيت ، حتى إن الواحد منهم كان ينسى مصيبته عندما كانت تذكر له وفاة « غالب » !

ومهما أراد الانسان أن يعبر عن ذاك الأسى الذي ران على كل بيت ، فإن القلم ليقف عاجزاً عن التعبير عن ذلك الموقف ، الذي تخرس فيه الألسن ، وتتكلم فيه العيون ، فتنزف الدماء بدلاً من الدموع ، ولا أجد خيراً من أن أورد الحادثة البسيطة التالية ، كما حدثت :

جمعتني المصادفات ، بامرأة لا أعرفها ، بينما كنا راكبين في سيارة عامة ... وفي الطريق دار حديث بين الركاب ، ذكرت فيه المرأة أنها من القابون ... فقال لها أحدهم : إذن أنت من بلد « غالب » فتأوهت المرأة ، وزفرت زفرة شاكية ، خرجت من الأعماق ، وقالت :

نعم ...واحسرتاه على « غالب » ... لقد خسرنا فيه شاباً يفتدى بكل الشباب !!

ثم أردفت المرأة تتابع حديثها ، من غير أن تُسأل ، فالموقف في نظرها لايحتمل السكوت ، فقالت :

ـ ووالله لقد نسينا في غالب كل مصيبة ... ونسينا أن نسأل عن أولادنا الذين غابت عنا أخبارهم أياماً عديدة ... ويكفي أن أذكر لكم ماحدث معي حتى تعرفوا الحقيقة ...

كان لي ولد في الخطوط الأولى من الجبهة ... وضاعت عني أخباره منذ أن ابتدأت المعركة ... ولم يكن لي هم إلا أن أسأل عنه الرائح والغادي ... وكان زوجي لايبرح يسارع إلى كل من لديه أخبار من الجبهة لعله يعرف شيئاً عنه .

وفي مساء يوم من الأيام ، عاد زوجي إلى البيت ، فسارعت إليه أسأله : هل سمعت شيئاً عن أخبار ابننا ؟

فرأيته واجماً ساكناً لايتكلم !! فظننت أن ابني قد حدث له حادث ، فصحت به أسأله ، وقد فقدت صوابي :

ـ خبرني ماذا حدث لابني ؟؟

فقال لي :

ـ أو تسألين عن ابنك ، وقد مات « غالب » ؟ !!

ـ ماذا يكون ابنك بعد أن فقدنا « غالب » ؟ !

- ووالله لقد تمنيت أن يموت جميع أولادي ، فداءً لغالب !!

ونفرت من عينيه دمعة ، جاهـــد أن يخفيها ، غير أنها غلبته !!

وبينما كان يجفف دموعه متجلداً قال لي :

- لاتسألي عن ابنك بعد اليوم !!

ثم هز رأسه وهو يقول :

- لقد كنت أريد أن أوزع القهوة في عرس غالب ، فإذا بي أجدني اليوم أوزع القهوة في مأتم غالب !!

وفي حزن عميق راح يقول :

- بئست الدنيا بعدك يا « غالب » !!

بئست الدنيا بعدك يا « غالب » !!

● ● ●

لقد عم الأسى حي القابون ، وخيم ستار كثيف من الحزن على ذاك الحي العريق ، من أقصاه إلى أقصاه !! حتى إنك لترى الواحد منهم يمشي سادراً واجماً لايدري مايفعل ... والتأم شمل الجميع حول قبر «غالب» ، قد علت وجوههم كآبة مرة وأسى عميق !!

وما درى هؤلاء المكتئبون أن الأرض من تحت أقدامهم ، كانت تهتز طرباً ، فهي على موعد لتضم رفاة « غالب » !

ومادرى هؤلاء الآسون أن « غالباً » قد غاب عن أعينهم ليلج عالماً جديداً ، عالم السعادة الأبدية الخالدة ، تستقبله فيه ملائكة الرحمة ، لتأخذ به إلى عالم الخلود والبقاء الأبدي !!

وما درى هؤلاء الذين كانت أفئدتهم تعتصر ألماً ، أن ملائكة الرضوان قد حفت به من كل مكان ، تأخذ بيده لتزفه إلى الحور العين !!

ووقف المؤبن ، وسط الجموع المحتشدة حول قبر غالب ، يقول بصوت ترنّ فيه نغمة الحزن العميق :

« كنت أود أن أخطب يوم زفافك ، ولكن الله سبحانه وتعالى شاء غير مانشاء ونهوى ... شاء الله سبحانه وتعالى أن يكون عرسك على حورية من حوريات الجنة ، من الحور العين ! »

وتابع المؤبن خطابه يقول :

«انه لقدر لهذه الأمة ، أن تقدم في كل مناسبة أبناءها البررة ، وتقذف بفلذات أكبادها في أصول العزة والكرامة ، منارات تهدي السالكين ...»

« وإنه اقدر أيضاً ، أن يختار الله مثل غالب إلى جواره ، ليضرب لمن خلفه أمثولة البطولة وملحمة الفداء ...»

« لقد ضرب شهيدنا أروع الأمثلة في البطولة والتضحية ... وقدم روحه ، في سبيل أسمى غاية وأنبل هدف ... وشق لمن بعده طريقاً ممهدة بدمائه الزكية ، ونادانا أن هـــذا هو الطريق فاسلكوه ، فهو طريق الحق والصواب ...»

واختتم المؤبن كلمته بقوله :

« عهد علينا .. أن نسير على نهجك ، وأن نتبع هديك ، فقد كان نهج الأخيار ، وهدي المؤمنين المتقين .. »

● ● ●

لقد غاب « غالب » عن هذا الوجود ... غير أن روحه لم تفارق إخوانه وأحبابه ... وكثيراً ما كانت هذه الروح الطاهرة الطيبة تتجلى لإخوانه وأحبابه ، تخبرهم بما أعده الله لهـا من نعيم مقيم ، ومنازل عليا ، يغبطه عليها الصالحون ... حتى إنه ليمكن القول : إنه فاز بما أعده الله لعباده الصالحين ... مالا عين رأت ولا أذن سمعت ... ولا خطر على قلب بشر !!

وكثيراً ما كانت روحه العظيمة تتراءى لأحبابها ، تسيرفي صحبة النبي عليه الصلاة والسلام ، وصحبة الصالحين من المؤمنين الصادقين ... وكأنما كانت تشير لهؤلاء الناس أن الإيمان الصادق يوصل صاحبه إلى أرفع الدرجات ...

وكثيراً ما كانت روحه الخالدة تتراءى لأحبابها ، تدفعهم إلى الجد والعمل من أجل الدار الآخرة ، تدفعهم إلى التقوى ومجالس العلم والذكر والإيمان ، حتى إنه ليصدق عليه القول : نصح قومه حياً وميتاً ...

وكثيراً ما كان يتراءى لأحبابه فيسألونه : ماذا فعل الله بك؟ فيقول غفر لي ... وسيحشرني مع النبيين والصديقين !!

وكثيراً ما كان يتراءى لأحبابه فيسألونه عن حاله ، فيقول: في أحسن حال ، وقد سألت الله أن يعيدني إلى الدنيا ، لأخبر إخواني بفضل مجالس العلم ومجالس الذكر ، ثم أستشهد مرة أخرى ... غير أنه لم يؤذن لي ... فقد سبقت بذلك كلمة الله !!

فلله أنت يا « غالب » يوم كافحت وناضلت ، لتأخذ بيد الناس إلى الله !!

لله انت يا « غالب » يوم سلكت سبيل المسرح ، وجعلته باباً من أبواب الدعوة إلى الله !!

لله أنت يا « غالب » يوم جاهدت وكافحت ، ترد الأعداء عن أرضك ، أرض آبائك وأجدادك ، فعطرتها بدمائك الزكية !!

لله أنت يا « غالب » يوم وقفت في الملأ الأعلى ، تدعو الناس إلى سبيل التقوى !!

وما أروع ما قاله شيخك فيك :

« لقد عاش غالب حميداً ... ومات شهيداً

« لقد كان مدرسة في الدعوة ... وكان أمة وحده !!»

رحمك الله ياغالب ... وطيب ثراك .

أنتم السابقون : ونحن إن شاء الله بكم لاحقون ... وعلى درب الإيمان والنضال سائرون .

رباه هبني الغداة شهادة

لصديق الفقيد: الأستاذ محمد بشير الحمصي

شهر الفــــداء على الردى وتقدّما
ومشى بوادي الموت كي يحمي الحمى
قد أثبت القدمـين في ساح الوغـى
ودعـا لنيل الموت : يارب السما
وسعى يريق الدمع في عمق الدجى
رباه إن الشوق في قلبـــي طمى
رباه هبـــني في الغداة شهـــادة
وتلقّ حبـــاً في الفؤاد مُكتّـما

* * *

تلك الصفات كتيبة تفـــني العدى
يحمي الحمى مَن بالبطولات احتمى
يحمي الحمى رجـــل يجود بروحه
ز أبطأ المـــرء الشجاع وأحجما

يا يوم وقفـــة غالبٍ أنت الردى
رعت القلوب بفارسٍ قـد أقدما
مثلَ الصواعق ، بأسه في قلبهـــم
قد أشرب الأعداء من كأس العمى
جولان قـــد آن الأوان لتفخري
وتبشّري شعب النعـــيم لينعما
قد عـــاد مجدكَ يامحمد قائـــلاً:
كيد اليهود غــداً يعود محطّمـاً
وستصرخ الأحجار يايوم البـــلى
ان اليهـود تشتتوا مثـــل الدمـى
شعبُ الخيانة لن يطول «لغدرهم»
عمر الزمان وغالبٌ قـــد دمدما
و«بنو قريظـــة» أيقنوا في قبرهم
أن العروبة بارقٌ لـــن يعتما
ابن العروبـة «غالب» غلب الدجى
وأنار من نيرانـــه ما أظلمـــا
وأنار للأكـــوان من وجناتـــه
نور على نور يضـــيء الأنجـــما
لمـــا طمحت مكانـــة علويـــة
أقسمت لايعلوك فيهـــا من رمى

أقبلت - يارمز الشباب - إلى الوغى
متبسّماً لما الهلاك تجهّما

تحمي الفضاء بقوةٍ وعزيمةٍ
تعلو ولا تُعلى ، وتزكي المغنما

لما رأى الأعداء بأسك أحفظوا
لهب التِّرات بصدرهم قد أضرما

وجعلت نفسك إذ تردد خوفٌ
طعماً بصيد لنا الخلود الأعظما

ووقفت كالأسد الذي عشق العلا
عشق الجهاد وبالردى كم أُغرما

بخل السلاح[1] على الضيوف بفضله
فكفيتنا ، كنت الجواد الأكرما

كنتَ الجوادَ بكل وقت عندنا
كنت الشهيد وللفدى متقدما

قد كنت ميتاً في الحياة من الضنى
فجُعلت حياً في الممات مكرّما

قد عدت حياً في القلوب ولم تمت
مازلت تسعى في الفؤاد مسلّما

قُلّدت ياخير الدعاة شهادة
نجم مما كيا يعانق أنجما

(١) اشارة إلى تعطل مدفعه .

كنت المجلي في الهداية امــة

كنت المزكي للنفــوس معلّما

كنت المعــلم خاشعاً متضرعــاً

ولكم بكيت على الورى متألمــا

أولم تطف بالعلم في ينبوعه   أو لم تنل من زاده ما أفعما

فإجازتان وقدمنحت جوائزاً   وخطابة ٌ ولقد ُوهبت تـكلما

● ● ●

فلتهنئي يا أمــة العرب انتضت

أيــدي الأباة سلاحها لتهاجمــا

بدأ الجهادَ محمــدٌ ضد العــدا

واليوم قــد آن الأوانُ ليُختما

ستحطم الأقــدار شأن عــدونا

وسنُدخل الأعــداءَ نارَ جهنما

وستزعق الأشجـار أنْ طاب اللقـا

وسينطق الصخر الأصم لنهجــما

سيبين من (جيش الدفاع) عداؤه

وسينحني والأنف أضحى مرغما

ويحقــق الرحمن آي كتابــه

وعدونا يلقــي السلاح ليسلمــا

« شهاب أضاء الكون »

لصديق الشهيد الأستاذ هاني الصحاني

شهاب أضـاء الكون أو قـل تمـرّدا
لعمر الهوى قـــد كان برّاً ومرشداً

وما ضر هـــذا الشهمَ تغريبة القضـا
إذا كانَ في هذا الفضـــاء ترددا

مضى يافعاً من مسجد النور فاهتـدى
وأعطى له خـــير الوجود فأسعدا

أصاخ لقولٍ : ذا الأنام أمانـــة
فقام لداجي الليـــل نوراً مبـــدّدا

مضي داعياً يعطي النفوس رشادها
ويوري سويداء القـــلوب توقّدا

وقالوا له هـــذا العدو بأرضنـــا
أترضى لهذي الأرض أن يجثم العدا

فقام شجاعاً واعتلى صهوة العـــلا
وآلى على النفس الثبـــات وأكدا

ودارت رحى الحرب الضروس وشاركت
بها كل نفس عـــزة تعشق الردى

فهاج وما كان الهياج حماقة
وماج كأن البحر يحمل أصيدا

أغالب ، غالبت الردى فقهرته
فأنت – أخي – مازال ذكرك مرمدا

أأنسى شباباً ذاب في طلب الرضى ؟
أأغفل عن قلب به خلّد الهدى ؟

أأضرب صفحاً عن زمان عرفته
به حرك الدنيا أقام وأقعدا

وحرك طوفاناً من النور في الورى
ودك لدى الأعداء ركنا وأهدرا

وأعلنها الله أكبر دائماً
وأسكنها تلك القلوب ورددا

أغالب قم فانظر فحولك جحفل
ينادي ليوم الثأر لا لن نُغمّدا

وقفت خطيباً حيث نعشك منبر
فأسمعت ذا صم وأيقظت هُجّدا

وأطلقت سهماً في البطولة صائباً
وأرجعت للأذهان والفكر (خالدا)

فهل كنت إلا السيف زاد مضاؤه ؟
وهل كنت إلا النسر حلق مبعدا ؟

هل قرأت سلسلة (قصص من التاريخ) ؟

إنها سلسلة من القصص التاريخي ، تعمل على أن تنفض غبـــار النسيان ، عن تاريخنا المجيد ؛ ليكون ذاك التاريخ الناصع ، نقطة انطلاق إلى مستقبل مشرق ...

١ - الدين الحق : قصة تروي انتصار الإسلام الأعزل ، على التتار ذوي الجيوش الجرارة ... وذلك عندما قـــال بطل القصة « الشيخ جمال الدين » للطاغيه التتري :

« نعم ... قد يكون الكلب أغلى منا ثمناً – لو أننا لم ندن بالدين الحق » .

٢ – فأين الله !! : مجموعـــة من القصص القصيرة ، تروي :

★ صيحة « عبد الله بن عمر » في جوف الصحراء ...
★ إسلام الدكتور « كراتن » الأمريكي الجنسية ...
★ إيثار الإمام « الواقدي » وإخوانه ...
★ الشيخ « عبد القادر » .. رجل العلم والتقوى ...

٣ – الإيمان والزنزانة المنجولة : قصة « كعب بن مالك » رضي الله تعالى عنه ... وهو يروي لنـــا الصراع العنيف ، الذي دار في نفسه ، وهو في سجنه الفريـــد من

نوعه ... ذاك السجن الذي أودعه فيه رسول الله ﷺ مدة خمسين يوماً .

٤ ـ أم.. لا كالأمهات: تروي لك قصة البطولة الحقيقية في :

★ أم ... عملت على إعداد ولدها ، فكان أستاذ الإمام مالك .

★ أب ... جاهدخلال ٢٨ عاماً متواصلة ، لم يعد خلالها إلى أهله .

★ ابن ... طلب العلم ، حتى صار مفتي المدينة المنورة غير منازع .

٥ ـ صراع بين الفضيلة والرذيلة : يروي الصراع النفسي العنيف الذي تعرض له بعض المؤمنين عندما جاءتهم الرذيلة تعرض نفسها عليهم .

٦ ـ مهد البطولات : يروي قصتين يفخر بهما التاريخ احداهما دارت حوادثها أثناء صراع أمتنا مع الرومان والثانية جرت في الجولان خلال حرب رمضان .

★ سلسلة (شعب الايمان) ـ

١ ـ الايمان بالله جل جلاله

٢ ـ الايمان بالرسل : يصدر قريبا إن شاء الله

تطلب جميعها من :

دار الرشيد

دمشق ـ ص.ب ٢٤١٣

بيروت ـ ص.ب ١١٣/٦٣٣٤

صدر للمؤلف

الطبعة الجديدة ، مزيدة ومنقحة ، من كتاب :

(النحل تسبح الله)

– الكتاب الذي تناولته بالدراسة المجلات والإذاعات العالمية .

– الكتاب الذي عدته مجلة (Bee World) الانكليزية أحد المراجع العالمية الأكثر علمية وفنية (The more technical)

الكتاب الذي يظهر التوافق الكبير بين العلم والدين ...

– فيه تأخذ بيدك إحدى النحلات ، لتخوض معك غمار خليتها ، فتقوم بدراسة علمية للنحلة : طباعها وتصرفاتها ، ولغة تخاطبها ، وطريقة إنجاز الأعمال في مملكتها ، وأسلوب الحكم لديها ، وكيفية صنعها العسل ، وما أودعه الله في العسل من خواص الشفاء ...

يتخلل ذلك كله ، لفتات نحو اليد الخفية ، التي أتقنت الصنع ، وأبدعت في الترتيب والتنسيق ...

كما يجري بين ثنايا هذا البحث العلمي المستفيض ، مقارنة دقيقة بين آراء العديد من كبار العلماء المجلين في مضمار العلم ، وبين معطيات الدين الحنيف ...

من منشورات دار الرشيد

- القادسية (طبعة ثانية)
- اليرمـوك .
- نهاونـد .
- فتح مصر ومعركة ذات الصواري .
- فتح الاندلس (معركة وادي لكة)

- الاسلام وحركات التحرر العربية

★ مجموعة حكايات حارثة : للاستاذ عبد الودود يوسف
وهي مجموعة قصصية عن معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم .

★ حكايات عن القرآن الكريم : للاستاذ عبد الودود يوسف

★ كتاب « المناهج الاصولية في الاجتهاد بالرأي : للدكتور فتحي الدريني
وهو كتاب يجمع بين الدراسة الشرعية والقانونية .